سلسلة التربية الإيمانية

إذا صح الإيمـــان

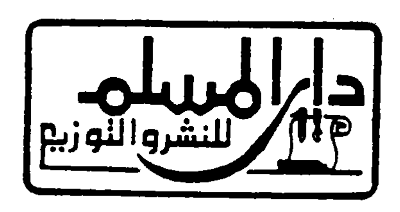
إعداد
عبدالله بن فهد السَّلوم

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
السلوم، عبدالله بن فهد
إذا صح الإيمان . – الرياض .
١٤٤ ص ؛ ١٧X٢٤سم .– (سلسلة التربية الإيمانية؛ ١)
ردمك: ٢–٣٢–٦٣٢–٩٩٦٠
١– الإيمان (الإسلام) أ – العنوان
ديوي ٣، ٢٥٢ ١٧/٣٠١٤

رقم الإيداع : ١٧/٣٠١٤
ردمك: ٢–٣٢–٦٣٢–٩٩٦٠

الطبعة الأولى
١٤١٧ هـ – ١٩٩٧م

الصف والإخراج
مركز دار المسلم للصف والإخراج الفني



الرياض ١١٤٨٤ – ص.ب ١٧٣٥٦ – هاتف وفاكس ٤٩٣١١٤٩

واستحضار هوله العظيم، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ۝٦﴾[١] يوم الفضائح على المجرمين والمتجبرين يوم يقول فيه كل واحد من الناس: نفسي نفسي إلا محمداً ﷺ الشافع عند ربه. وكذلك الإيمان بالكتب ومنها القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والزبور وصحف إبراهيم وموسى. وكذلك الإيمان بالقدر خيره وشره وحلوه ومرّه، بحيث يعلم العبد ويتيقن أن كل شيء حدث أو يحدث أو سوف يحدث في هذا الكون بقضاء الله وقدره لا يخرج منه شيء عن تقدير الله الكوني القدري.

والحاصل أننا إذا عشنا العقيدة في قلوبنا وتبينا معانيها، وظهر أثرها على سلوكنا، فإن هذا سيثمر حياة للقلوب، ومن ثم تكون العبادات ذات أثر فاعل ومهيج إلى حمل همِّ الآخرة، واستشعار الوقوف بين يدي الله العظيم الكبير المتعال.

أما أن يكون الإقبال على الخير والتربية مجرد حماس وعاطفة واكتفاء بالآداب والسنن فإن هذا نقص ظاهر، إذا كان الأساس ضعيفًا. ونلحظ من عنده العلم النظري الكثير ومع ذلك عنده الضعف الظاهر في العمل فتجد من يحفظ القرآن الكريم كاملاً مع ضعفه في الصلاة وجهله بأبجديات العلم في العبادات والعقائد. وتجد من يحفظ العقيدة في القضاء والقدر، ولكن واقعه العملي بعيد عن مفهوم تلك العقيدة، وتجد من يحفظ الأذكار وليس له نصيب منها في ورده

(١) سورة المطففين، آية: ٦.

اليومي، بحيث يجلب له الخشوع والطمأنينة، ومن يرددها لا يتدبرها ويتذوق حلاوتها، فليس لها تأثير في حياة القلب والروح.

وتجد من يتحدث كثيراً ويعمل قليلاً وينتقد الآخرين، مع إهماله لنفسه وبيته، وتجد من يتحدث عن عبادته وعلمه وعمله ومميزاته وكل ماترتاح إليه نفسه وهو غافل عن مسألة الإخلاص وحبوط الأعمال ودواعى الرياء والسمعة والعجب والإدلال(١).

وتجد من يعرف آفات الأعمال وما يجهله الناس من أمور العبادات، ولكنه غافل أو متغافل عن آفات القلوب وأدواء النفوس، إلى غير ذلك من المظاهر الكثيرة التي مرجعها إلى ضعف الإيمان. ولايصح أبدًا أن تكون التربية للأجيال هي الاقتداء بضعيف الإيمان في البرامج والأعمال . كما لا يصح أن تكون التربية كلها تأليفًا للقلوب واسترضاء للنفوس، ويترك البناء الجاد للمؤهلين القادرين، بحيث نهملهم بحجة التنزل للضعفاء والخاملين، إذ لا يصح أن يهمل الكيف بحجة الانشغال بالكم فلا بد من تخصيص القائمين على التربية والتدريس بمزيد من العناية في التربية الإيمانية العلمية والعملية.

وهذه ـ أخي القارىء ـ فصول هذا البحث بين يديك:

ـ تعريف الإيمان.

ـ مفهوم الإيمان.

ـ وقفة مع الرسول ﷺ المربي لصحابته الأطهار

---

(١) الإدلال هو: الامتنان بالعمل على الله.

تعريف الإيمان:

لغة: يراد به التصديق لقوله تعالى عن إخوة يوسف: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ ١٧﴾[(١)] ويطلق ويراد به التأمين لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ ٤﴾[(٢)].

واصطلاحاً: عرفه العلماء بأنه:

قول باللسان، واعتقاد بالجنان، وعمل بالأركان، يزيد بالطاعة، وينقص بالعصيان.

أصول الإيمان: تسمى أركان الأيمان وهي ستة:

الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره.

لقوله تعالى: ﴿۞لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾[(٣)] ودليل القدر قوله تعالى ﴿إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ ٤٩﴾[(٤)].

وقال النبي ﷺ **«الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وتؤمن بالقدر خيره وشره»** رواه مسلم.

---

(١) سورة يوسف، آية: ١٧.
(٢) سورة قريش، آية: ٤
(٣) سورة البقرة، آية: ١٧٧.
(٤) سورة القمر، آية: ٤٩.

مفهوم الإيمان:

هو أن يؤمن العبد بربه إيماناً يتغلغل في نفسه، بحيث يعتقد أن الله هو الذي خلقه وأوجده من العدم، وسوف يرده إليه ليحاسبه ويوقفه بين يديه، وأن يعتقد المؤمن أن الأعمال والأرزاق كلها بيد الله، وأن نفساً لن تموت حتى تستكمل رزقها وأجلها.

ويعتقد أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، وأن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوه بشيء لاينفعوه إلا بشيء قد كتبه الله له، ولو اجتمعوا على أن يضروه بشيء لا يضرونه إلا بشيء قد كتبه الله عليه.

ويعتقد العبد كذلك أن الله هو ناصره ومعينه وهاديه أو مضله، وشافيه ومصيبه، وعالم بسره وعلانيته وبتقواه وفجوره، وأن قلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبهما كيف يشاء، وأن الله له ملك السموات والأرض، وبيده مقاليد الأمور، وأنه يعلم السر وأخفى، وأنه سبحانه يعلم ماكان وماهو كائن وما سيكون، ومالم يكن لو كان كيف يكون إلى غير ذلك من صفات الرب العلي وأسمائه الحسنى وأفعاله العظيمة، التي تليق بجلاله وعظمته.

وأن يتوجه العبد بقلبه وجوارحه وحركاته وسكناته وخطواته ولحظاته في سره وجهره وخلوته واجتماعه يتوجه بها إلى ربه، منيباً إليه، موحداً همه وفكره وقصده مبتغياً بذلك وجهه، وطالباً مرضاته في عبادته إليه، ومعرضاً بكليته عن المخلوقين، فلا يرجوهم، أو

يماريهم، أو يداهنهم، أو يشكو إليهم، أو يعول عليهم، في صغيرة أو كبيرة، بل هو موصول القلب بربه معتمداً عليه ومعتصماً به.

فإذا عاش المؤمن بهذا الشعور، أحب العبادة وتلذذ بالذكر والدعاء والمناجاة فتهون في نفسه الدنيا، ويسهل عليه أمرها، سواء جاءته أو حرم منها. وتحرر من الشح والهوى ونزعات النفس الأمارة بالسوء، وتخلص من وساوس شياطين الإنس والجن، ومن ثم يندفع بهذا الشعور إلى التوكل على الله، فيقول الحق لاتأخذه في الله لومة لائم أينما كان، ومع من كان، ويندفع إلى العمل في سبيل الله بكليته، لا يعرف الراحة ولا يريد التواني، ولا يصحب المتثاقلين الذين أشغلتهم دنياهم وشهواتهم وحظوظ أنفسهم.

«إن الإيمان إذا باشر القلب، ووالى صاحُبه اللهَ ورسولَه تميز عن غيره، وظهرت عليه آثاره، وتسلح به من مغريات الحياة، وقواطع الطريق. فبدون الإيمان الحق الصادق يبطل كل سلاح وإعداد»(١). ومع الإيمان تفرج الكروب، وَتُحَل الأزمات، وتُستدفع البلايا وينتصر المؤمنون وتصلح حالهم، قال تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٤٧﴾(٢).

ولقد تنوعت وكثرت صفات المؤمنين في القرآن الكريم والسنة المطهرة لتبين صلاح حالهم، وسمو مقامهم، وأن الله معهم يحبهم

---

(١) من كتاب ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين لإبي الحسن الندوي ـ باختصار ـ.
(٢) سورة الروم، آية: ٤٧.

وينصرهم ويعنيهم ويدافع عنهم، ولايسلمهم لعدوهم، ولايخيب رجاءهم، ولايضيع أجورهم، ويجزيهم أعظم الجزاء بتقريبهم في دار كرامته، والتمتع بالنظر إلى وجهه الكريم، في جنات النعيم، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾(١).

وقفة مع الرسول المربي لصحابته الأطهار

لقد ربى الرسول ﷺ صحابته تربية إيمانية صادقة، وقد جمع الله له أسمى صفات الجمال والكمال، وأبلغ معاني الحسن، والإحسان، فمن رآه هابه، ومن خالطه معرفة أحبه، يقول واصفه: **(لم أر قبله ولا بعده مثله)** فاندفع إليه الحب الصادق، وانجذبت إليه النفوس والقلوب، فهو القدوة أمام الصحابة في عبادته ومعاملته ودعوته وكل تحركاته ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾(٢)ومن نتائج تلك التربية الجادة الصادقة التي شملت القول والعمل النية انقلبت نفوس الصحابة بهذا الإيمان الواسع الواعي الواضح انقلاباً عجيبًا، فإذا آمن أحدهم بالله ورسوله انقلبت حياته ظهراً لبطن وتغلغل الإيمان فيه وتسرب إلى أعماقه ومشاعره، وجرى منه مجرى الروح والدم، وغمر العقل والقلب بفيضانه، وجعل منه رجلاً غير الرجل الأول، وظهرت منه روائع الإيمان، والبر واليقين، والصبر والشجاعة، وظهرت منه

---

(١) سورة البقرة، آية: ٢٥٧.
(٢) سورة الأحزاب، آية: ٢١.

خوراق الأفعال والأخلاق ما حيَّر العقول وتاريخ الأخلاق، ونبتت فيه ضروب الخوف من الله والخشية له، فلقد خرج الصحابة مع الرسول ﷺ القدوة المربي خرجوا معه للقتال سبعاً وعشرين مرة في عشر سنين، وخرجوا بأمره للعدو أكثر من مائة مرة. وقال قائلهم (وهو سعد بن معاذ رضى الله عنه) قال عن نفسه وعن الأنصار قبل بدر): **(إني أقول عن الأنصار وأجيب عنهم فاظعن يارسول الله حيث شئت، وصل من شئت، واقطع حبل من شئت، وخذ من أموالنا ماشئت، وأعطنا ماشئت وما أخذت منا كان أحب إلينا مما تركت، وما أمرت فيه من أمر فأمرنا تبع لأمرك، فوالله لئن سرت حتى تبلغ البرك من غمدان لنسيرن معك ولئن استعرضت بنا هذا البحر خضناه معك)**[1]. رواه ابن أبي شيبة

وبهذا الإيمان هانت على الصحابة الأطهار دنياهم ورزيئة أولادِهم ونسِائهم ونفوسِهم. ونزلت الآيات بكثير مما لم يألفوه، وبكل مايشق على النفس إتيانه في المال والنفس والولد والعشيرة.

فقد دخلوا في السلم كافة بقلوبهم وجوارحهم وأرواحهم لا يشاقون الرسول من بعد ما تبين لهم الهدى، ولايجدون في أنفسهم حرجاً مما قضى، ولايكون لهم الخيرة من بعدما أمر ونهى، حتى إذا خرج حظ الشيطان من نفوسهم وخرج حظ نفوسهم من نفوسهم، وأصبحوا في الدنيا رجال الآخرة، وفي اليوم رجال الغد لاتجزعهم

---

(١) زاد المعاد ٣، ص ١٧٣.

مصيبة ولاتبطرهم نعمة ولا يشغلهم فقر، ولايريدون علواً في الأرض ولافساداً، حتى إذا كانوا كذلك وطَّأ الله لهم أكناف الأرض، وأصبحوا هداةً للبشرية بتوفيق الله، ووقايةً للعالم ودعاة إلى دين الله. واستخلفهم الرسول ﷺ على أمته، ولحق بالرفيق الأعلى وهو قرير العين[١].

وإليك خلاصة حالهم مع رسولهم الكريم من خلال هذه الآية الكريمة قال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ﴾.[٢] وهذا عروة بن مسعود يصف حال الصحابة مع الرسول ﷺ بعد مارجع من الحديبية وقد بعثته قريش مفاوضاً عنها. فقال: (أي قوم والله لقد وفدت على الملوك على كسرى وقيصر والنجاشي. والله مارأيت ملكاً يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمداً، والله إن تنخم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، واذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يحُدون إليه النظر تعظيماً له).[٣]

---

(١) من كتاب ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين بتصرف (لأبي الحسن الندوي).
(٢) الفتح/ ٢٩.
(٣) زاد المعاد٣ ، ص٩٣ ذكره ابن إسحاق، والحديث رواه البخاري.

نظرة في حال إيماننا

تقدم لنا حال أصحاب الرسول مع رسولهم المصطفى ومع بعضهم البعض، فلقد كانوا الجنود المخلصين الذين جادوا بكل ما يملكون من مال وجهد ووقت، ولقد بذلوا التضحيات الجسام من أجل دينهم وعقيدتهم، وقد فعل بهم إيمانهم الصادق ما فعل، فلقد غير النفوس وأيقظ القلوب وأحيا المشاعر وأثار في الحس الهيبة والإجلال للخالق المتعال، فأين نحن من ذلك الإيمان ومن تلك النفوس الكبيرة والإرادت الصاعدة؟ وما حقيقة إيماننا؟ لأن لكل شيء حقيقة. فهل نقدم إيماننا ونؤثره على أهوائنا وشهواتنا ودنيانا وقيمتنا في قلوب الناس؟! وهل هو إيمان مجاملات نتزيا به، ونستحيي من الإفصاح عنه؟! وهل هو دعوى بدون برهان حقيقي؟! ثم هل من أجل الإيمان نبيع الحياة والجاه والمال والمنصب والولد والعشيرة والأوطان؟! وهل نكتفى من الإيمان بحدود ما يجمّلنا عند الناس ومايدخلنا فى مصاف المسلمين فقط؟! وهل هو عندنا التقليد والعادة؟! أم للإيمان عندنا شأنٌ آخر وملمسٌ في النفوس، وتحريكٌ للقلوب يؤثر بها ويسوقها إلى الإخلاص والصدق والعمل في السر والعلن لما يرضي الله سواء كرهت النفس أم لم تكره رضي الناس أم لم يرضوا، وهل للإيمان في قلوبنا حركة فعالة وإيجابية مؤثرة في كل عبادة وكل خطوة يخطوها المؤمن، بحيث يكون وراءها حرارة الإيمان، وصدق

التوجه، وعلو الهمة، حتى تحمل تلك العبادةُ الروحَ الصادقة، والأثر المؤثر في كل أفعال العبد داخل العبادة وخارجها فيعيش برًا نقيًا تظهر عليه آثار الإيمان، وتفيض من كلماته وتبدو على محياه ومشيته وغضبه وفرحه وكل تصرف من تصرفاته حتى في نومه ومزاحه فهو لربه غاديًا ومقيمًا حيًا وميتًا قال تعالى ﴿ **قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** (١٦٢) ﴾[١] فبالله يسمع، وبه يبصر، ويخطو ويبطش، فيكون النور في قلب العبد ومن بين يديه ومن خلفه قال الرسول ﷺ: قال الله تعالى: «**من عادى لي وليًّا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحب إليَّ مما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه**»[٢].

ثم هل نستجيب لنداء الإيمان إذا نادنا بلسان حاله ومقاله قائلاً يا معشر المسلمين، يا أهل العقيدة يا أشبال أسود التوحيد يا خلفاء محمد ﷺ على الناس. قوموا بواجبكم أحسنوا نياتكم وأصلحوا قلوبكم تصلح حالكم، مروا بالمعروف وانهوا عن المنكر، ارفعوا من شأن أمتكم أيقظوها من سباتها ردوها إلى ربها ارفعوا عنها هزيمتها حلوا عقدتها أشربوها هدى ربها وسنة نبيها، ويا أهل الإيمان إن أمتكم

---

(١) سورة الأنعام، آية: ١٦٢.

(٢) رواه البخاري.

سادرة غائبة العقل منساقة وراء عدوها الذي يسوقها معه إلى الجحيم ومنجرَّة بذهول وراء شهواتها ومسعورة تريد الدنيا فقط تعيش وتسعى لأجلها غافلة عن آخرتها ناسية أو متناسية رقابة الله حجبها الظلام وركام المتاع الخسيس عن اليقين بالآخرة وعن الجنة والنار وعن الصراط والميزان وعن القبر وظلمته وعن وعيد الله وعذابه الأليم . .

يا أهل الإيمان من للمسلمين بعد الله يعينهم وينصرهم ويضمّد جراحهم ويرد اعتبارهم ويصحح عقائدهم وسلوكهم ويذكرهم بربهم، ومن للأعداء يقف في وجوههم ويرد كيدهم في نحورهم ويلقنهم دروسًا في الصدق قولاً وعملاً. ويريهم أيامًا عظامًا كأيام بدر وحنين والقادسية واليرموك، ويا أهل الإيمان من للأمة بعد الله؟ يسوقها إلى الجد في حياتها والاستعداد لآخرتها ويحقق فيها الخيرية التي وُعدت بها ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ .

ثم لنقف لمحاسبة أنفسنا كم نبذل لديننا من أوقاتنا وأموالنا واهتماماتنا وهل نستجيب لنداء الإيمان أم هو التمني والتغني بتاريخ الإسلام ومجد الأجداد والتحلي بسير الأبطال وجلاد الفرسان. أم هو الاستسلام لكيد العدو وحيل الشيطان وداعي النفوس للإخلاد والدعة والراحة والهوان والشهوات والتشاغل بهذه الدنيا الدنيئة الملعونة الصادة عن ذكر الله وما يقرب إليه.

فما أعظم همنا وأشد كربتنا وأطول كدنا وأجود بذلنا حينما تكون القضية دنيوية في مسكن أو سيارة أو عقار أو وظيفة؟! وما أقل

اهتمامنا وأبرد حالنا وأبخلنا حينما يكون الأمر في طلب علم أو دعوة أو إحسان يراد به وجه الله والدار الآخرة! فلا حول ولا قوة إلا بالله العظيم أن نؤثر الفاني على الباقي والعاجل على الآجل، نعم نعيش بهذه الحال إلا ما رحم ربي في الوقت الذي يرفع فيه أهل الباطل باطلهم ويجاهدون في سبيله يبذلون أنفسهم وأموالهم قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾﴾[1] اللهم إنا نشكو إليك جلد الفاجر وضعف الثقة.

فنحن مدعوون إلى تجديد إيماننا وإعادة حساباتنا لننظر فيها ولنرتبط بربنا ونعتصم به ونتوكل عليه فمن صدق مع ربه أعانه وسدده وهداه ووفقه وقبل منه وثبته ونصره وأعزه قال تعالى ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾﴾[2].

إن سوء حالنا وضعف إيماننا ويقيننا ليس خاصًا بالفسقة من المسلمين اللاهين العابثين المعرضين عن ربهم، بل إنه داء الجميع إلا من رحم الله من إيثار الدنيا وقسوة القلوب والحسد والتنافس وحظوظ النفس والبحث عن الراحة، وضعف التأثير وموت الهمم، فهذه الظواهر المسيطرة على القلوب والمضيعة للأوقات والأفكار، فليست قضية أكثرنا اليوم حمل هم الأمة والدعوة إلى الله ومتابعة الكيد للإسلام

---

(١) سورة الأنفال، آية: ٣٦.

(٢) سورة غافر، آية: ٥١.

وأهله ولكن القضية الكبيرة في الحس هي هذه الدنيا ومشاغلها.

فمن تطيب له الحياة؟ وديار الإسلام نهب للغزاة الكفرة وأعراض المسلمات تنتهك وحرماتهم تستباح. وكيف ننشغل بأنفسنا عن عدونا وبدنيانا عن ديننا.

أهمية الإيمان

إن الاستقامة على دين الله والالتزام به ظاهراً وباطناً هو سبب الفوز والفلاح في الدنيا والآخرة قال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾. فالله عز وجل كتب لأوليائه وحزبه النصر والتمكين والسعادة في الدنيا والآخرة، ولا يظن الظانون أن جزاء المؤمنين هو في الجنة فقط بل نعمتهم وكرامتهم فى الدنيا والآخرة، ولكن كيف هذا؟ ونحن نعلم ما أصاب الأنبياء من القتل والتشريد والأذى والفتن والمحن والابتلاءات وما أصاب من هم دون الأنبياء من المجاهدين والعلماء والدعاة والمصلحين، بل وكل مؤمن في الدنيا. والجواب عن ذلك أن ماينال أولياء الله من أذى ومصائب إنما هو على أجسادهم وظواهرهم وأموالهم ودنياهم وإلا فقلوبهم وأرواحهم في سرور اذا عملوا الصالحات فيزدادون راحة وطمأنينة وسكينة لقول الرسول ﷺ: **«أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل من الناس. يبتلي الرجل على حسب دينه فإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه، وإن كان في دينه رقة خفف عنه وما يزال البلاء بالعبد حتى يمشي على الأرض ليس عليه خطيئة»**[١].

وهذه حكمة الله وسنته في خلقه، أن يقيّض لأوليائه الشياطين

(١) رواه أحمد في المسند.

والكفرة والظالمين فيجاهدهم المؤمنون لتقوم سوق الجهاد في هذه الدنيا التي هي دار الامتحان فيرفع الله درجات أوليائه بما حققوا من جهاد وصبر واحتساب وليس ذلك لهوانهم على الله كلا، فالجهاد هو أحب الأعمال إلى الله والمجاهدون هم أهل المثوبة والجزاء العظيم قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ۝٤﴾[1]. وقال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣﴾[2].

والمحن والأذى والابتلاءات ليست فقط خاصة بالمؤمنين الصابرين الراضين المحتسبين الشاكرين بل هي على الناس كلهم بَرِّهم وفاجرهم مسلمهم وكافرهم قال تعالى ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ ۝٤﴾[3] ولكن منهم من تكون له الابتلاءات شقاء وأذى في الدنيا والآخرة فلا يثاب عليها كحال الكفار ومنهم من تكون له شقاء في الدنيا لايثاب عليها كحال الكثير من المسلمين الذين غفلوا عن الأجر والثواب ورفع الدرجات وتكفير السيئات. ومنهم من تكون له الابتلاءات ثوابا وأجراً وغنيمة كحال المؤمنين المحتسبين ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ ۝٣١﴾[4]

---

(١) سورة الصف، آية: ٤.
(٢) سورة العنكبوت، الآيات: ١ ـ ٣.
(٣) سورة البلد، آية: ٤.
(٤) سورة محمد، آية: ٣١.

إننا حينما ننظر في حال الكفرة الذين لعنهم الله وطردهم وأخزاهم وأبعدهم والذين هم شر من الحمير والكلاب قال تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٥٥﴾[(١)] نجدهم أشقياء تعساء أذلة صاغرين يعيشون ظلام القلوب بوحشة الكفر وغياب الإيمان واليقين فتشوهت حياتهم وضاقت أنفسهم بأنفسهم رغم ماهم فيه من سعة خارجية وحضارة مادية فإن الله أبى إلا أن يُذل من عصاه وخرج عن عبوديته قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ۝١٢٤﴾[(٢)] وهولاء الكفرة هم حطب جهنم يوم القيامة وبئس المصير. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ۝٦٤ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ۝٦٥ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ۝٦٦﴾[(٣)]

فحينما نتذكر حالهم في الدنيا والآخرة نستشعر حينئذ عظيم فضل الله علينا بنعمة الإيمان حيث هدانا ووفقنا وجعلنا من أهل الإيمان الراكعين الساجدين المتستجيبين لأمره والداعين إلى سبيله حيث اختارنا الله وتفضل علينا بفضله وجوده قال تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُواْ ۖ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝١٧﴾[(٤)].

---

(١) سورة الأنفال، آية: ٥٥.
(٢) سورة طه، آية: ١٢٤.
(٣) سورة الأحزاب، آية: ٦٤-٦٦.
(٤) سورة الحجرات، آية: ١٧.

فتفطنَ أيها المؤمنَ حيث اجتباك ربك وخصك من دون أكثر العالمين بنعمة الإيمان التى لم تحصلها أنت بنسبك وشرفك ومالك أو حيلتك أو علمك، ولكنها المنة المحضة من الله المنعم المتفضل فهل يليق بمن اجتباه ربه وخصه وأغاثه وأنقذه من الكفر وهداه بعد الضلالة هل يليق به أن يرخص هذه النعمة؟ ويتساهل بها ويأخذها مأخذ الهزل والتهاون.؟

وإن من أعطاه الله نعمة الإسلام والإيمان عليه أن يخاف أعظم الخوف أن تزول منه تلك النعمة أو تضعف، فإن أعظم المصائب وأشدها هي مصيبة الدين، أن يصاب الإنسان في دينه فيرتد أو ينتكس أو يهوي في دركات الفتن والشبهات والشهوات والمعاصي بعد الهدى والاستقامة فليس للمؤمن المتذكر أن يتعامل مع قلبه معاملة الآمن المطمئن لا بل عليه أن يذكر دائما بقلبه ولسانه يا رب يا رب: ﴿ **رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ** ﴿٨﴾ ﴾[1] وقوله تعالى عن آدم: ﴿ **رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ** ﴿٢٣﴾ ﴾[2] وأن يستحضر على الدوام قول المصطفى ﷺ: «**اللهم يامقلب القلوب ثبت قلبي على دينك**». وأن يخشى العبد من سوء الخاتمة والعاقبة النكراء فيكون الجزاء النار ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

قال النبي ﷺ: «**إن العبد ليعمل فيما يرى الناس عمل أهل الجنة**

(١) سورة آل عمران، آية: ٨.
(٢) سورة الأعراف، آية: ٢٣.

وإنه لمن أهل النار، ويعمل فيما يرى الناس عمل أهل النار وهو من أهل الجنة وإنما الأعمال بخواتيهما»[١]. قال ابن رجب: (فيما يبدو للناس، إشارة إلى أن باطن الأمر يكون بخلاف ذلك وأن خاتمة السوء تكون بسبب دسيسة باطنة للعبد لا يطلع عليها الناس إما من جهة عمل سيء ونحو ذلك)[٢].

وقال ابن القيم: (لما كان العمل بآخره وخاتمته، لم يصبر هذا العامل على عمله حتى يتم له، بل كان فيه آفة كامنة ونكتة خُذل بها في آخر عمره فخانته تلك الآفة والداهية الباطنة في وقت الحاجة فرجع إلى موجبها وعملها، ولو لم يكن هناك غش وآفة لم يقلب الله إيمانه، وقد تكون تلك الآفة إبطان خلاف الظاهر كالكذب أو السخرية بالآخرين والتكبر عليهم أو الاستهزاء بأهل الخير أو حب النظر إلى النساء والمردان أو السعي بالغيبة والنميمة وامتهان تلك الوظيفة الخسيسة[٣].

(١) رواه البخاري.
(٢) جامع العلوم والحكم ص٥٠.
(٣) واحات الإيمان، المجموعة الأولى ص١٣٣.

نعمة الإيمان

إن الإيمان بالله نعمة عظيمة يهبها الله لمن يشاء ويصرفها عمن يشاء قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[١]. فهو نعمة تزكي العمر وتبارك الحياة وترفع قلب المؤمن عن هذه الدنيا وزهرتها إلى التعلق بربه والدار الآخرة. وهي نعمة لا تشترى ولا تباع ولا تُهدى بين الناس لأنها الصلة بالله ومناجاته وذكره ودعائه وطاعته والتذلل بين يديه فلا يعطيها الله إلا من أناب إليه قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾﴾[٢].

وفي الإيمان الحياة الحقيقية والسعادة الأخروية، فهو سبيل أهل الجنة ورياض الموفقين وعنوان قلوبهم وصفاء أرواحهم ونور وجوههم، فهو النعمة التي لا تعدلها نعمة لأنه يقربك من مولاك وتحل في جنته وقربه هناك في النعيم المقيم وفي الإيمان من النار دار البوار ومصير الكفار وأهل العلو والاستكبار.

فتحقيق الإيمان وتصحيحه وتنقيته وتعاهده وسقيه هو مطلب العابدين وغاية الموحدين، وأنوار كلمة التوحيد في قلوب العباد درجات وهي تختلف باختلاف القلوب ومنازلها.

---

(١) سورة المائدة، آية: ٣.

(٢) سورة الرعد، آية: ٢٧.

قال في شرح الطحاوية: (بل تفاوت درجات نور لا إله إلا الله في قلوب أهلها لا يحصيها إلا الله تعالى فمن الناس من نور (لا إله إلا الله) في قلبه كالشمس ومنهم من نورها في قلبه كالكوكب الدري وآخر كالمشعل العظيم وآخر كالسراج المضيء وآخر كالسراج الضعيف. ولهذا تظهر الأنوار يوم القيامة بأيمانهم وبين أيديهم على هذا المقدار بحسب مافي قلوبهم من نور الإيمان والتوحيد علمًا وعملاً، وكلما اشتد نور هذه الكلمة وعظم أحرق من الشبهات والشهوات بحسب قوته بحيث إنه ربما وصل إلى حال لا يصادف شهوة ولا شبهة ولا ذنبًا إلا أحرقه وهذه حال الصادق في توحيده فسماء إيمانه قد حرس بالرجوم من كل سارق ومن عرف هذا عرف معنى قول النبي ﷺ «**إن الله حرم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله**» متفق عليه من حديث عتبان بن مالك.

فالإيمان إذا كان صحيحاً فإنه يغلب كل قوة ويقيل كل عثرة ويحل كل قضية، لأنه الدين الحق الذي من اعتصم به عصم ومن اهتدى به هدى فهو العاصم بإذن الله من كل بلية وشهوة وشبهة وبالإيمان خلاص العبد في دنياه من مشاكله وهمومه قال ﷺ: «**إذا دخل النور القلب انفسح وانشرح قالوا وما علامة ذلك يارسول الله قال الإنابة إلى دار الخلود والتجافي عن دار الغرور والاستعداد للموت قبل نزوله**» وقال ﷺ: «**قد أفلح من أسلم ورُزق كفافاً وقنعه الله بما آتاه**» (رواه مسلم).

وبالإيمان يرتفع المؤمن على كل الأهتمامات المادية والشواغل الدنيوية لأنه يعيش في هذه الدار لرضى الله وطلب ما عنده لا لنفسه وشهواتها وطموحاتها. وبالإيمان ينفتح القلب ويسمو توجهه ويتعلق بربه. قال شيخ الإسلام «ما يفعل أعدائي بي أنا جنتي في صدري؛ فطردي سياحة وسجني خلوه وقتلي شهادة» وقال إبراهيم بن أدهم (والله لو يعلم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه من النعيم لجالدونا عليه بالسيوف) والمقصود بالنعيم نعمة الإيمان والأنس بالله والتلذذ بمناجاته ودعائه والتضرع بين يديه. وبالإيمان ينتسب المؤمن إلى خيرة الخلق ويكون في صفهم وينتمي إليهم ويحشر معهم في الجنة إن شاء الله وينصرهم ويكون من أتباعهم فالمؤمن في زمرة الأنبياء والصديقين والشهداء الصالحين.. قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾﴾[1]

أما أهل الفجور والإعراض ومحادة الله ورسوله والمؤمنين فإنهم ينتسبون إلى شرار الخلق وسقط الناس من الكفرة والمتجبرين قال ﷺ: «**خمس صلوات كتبهنّ الله على العباد من حافظ عليها كانت له نورًا وبرهانًا ونجاة يوم القيامة، ومن لم يحافظ عليها لم تكن له نوراً ولا برهانًا ولا نجاة وكان يوم القيامة مع قارون وفرعون وهامان وأبي ابن خلف**»[2].

---

(١) سورة النساء، آية: ٦٩.

(٢) أحمد وابن حبان والطبراني وسنده جيد.

إذا صح الإيمان

إن للإيمان ثمرات عظيمة وأبواباً من الخير كثيرة ولن نستطيع لها عداً لأنه النعمة الأولى والأخيرة من يوم أن يكتب للجنين السعادة حتى تطأ قدمه رياض الجنة وهو يتقلب في العبودية لله راضياً به رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً.

وهو يعيش لهدف واحد عزيز عظيم فلا ضير عليه ولا هوان مما يلقى في سبيل ذلك.

وإليك - أخي القارىء - هذه القطوف والثمرات والنتائج والنهايات إذا صح الإيمان. قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝١٠١﴾[1] وهي بالجملة صلاح الدنيا والآخرة واستقامة الحال ورضى الرحمن، قال تعالى ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٩٧﴾[2].

وأنه بالإيمان الصحيح تنقلب الحال عما هي عليه من الركون إلى الدنيا وأسبابها إلى اتصال القلب بالخالق والتعلق فيه وطلب مرضاته، فتصبح الآخرة هي الهم والمطلب وكل حركة وسكون من أجلها.

---

(١) سورة آل عمران، آية: ١٠١.
(٢) سورة النحل، آية: ٩٧.

واقتصرت على تلك الثمرات لبروزها وأهميتها وإلا فإن الإيمان يجلب كل خير ويطرد كل شر والله المستعان وعليه التكلان وبه التوفيق.

أولاً: إذا صح الإيمان حاسب العبد نفسه ورعاها وكبح جماحها وكسر حظوظها ودعواها في سيرها وعجلتها إلى المنافسة والعلو والتقدم والمجاوزة والظهور على الآخرين والتعريض بأهميتها ودورها وحاجة الناس إليها.

فما ضعف الإخلاص واستشرى الرياء وما حل الحسد والبغي إلا بسبب إهمال النفس الأمارة بالسوء وتركها لتناول شهواتها في المال والترأس والمدح والتعاظم، فكن لنفسك وقافاً ورادعاً وكن لها حارساً وزاجراً، فالنفس هي مركز الاهتمام والاتهام وهي البداية والنهاية للنصر والتوفيق أو للخسارة والخذلان وهي مناط الجد والعمل والفتح المبين أو بوابة الكسل والفتور، وهي طريق الهمم الشماء والعزائم العالية أو سبيل الردى والهلاك، فمن صح إيمانه علم أن عدوه الحقيقي الأول هو نفسه، فإذا انتصر عليها غلب أي قوة وانتصر في كل معركة ونجا من الهلاك. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[1] ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾[2]. قال الحسن رحمه الله: (لا تلقى المؤمن إلا يحاسب نفسه ماذا أردت

---

(١) سورة الرعد، آية: ١١.

(٢) سورة الشورى، آية: ٣٠.

بأكلتي، ماذا أردت بشربتي، والفاجر يمضي قدماً لا يبالي)، وكل مسلم يعلم أنه يجب عليه أن يصلي ويصوم ويحج ويزكي ويتعبد بكل عبادة خالصة لله، فما الذي يُنقص العبادة، وما الذي يفسدها، وما الذي يذهب بروح العبادة وخشوعها. إن من أبرز ذلك هو النفس التي تتلفت ولا تصبر ولا ترضى باطلاع الله فقط على العمل فلا تكتفي بذلك بل تريد اطلاع الناس ومعرفتهم.

ثانياً: إذا صح الإيمان. صغرت الدنيا في عين المؤمن وقلبه وزهد فيها وهانت عنده وعلم أنها السحَّارة التي تسحر القلوب والغرارة التي غرت كثيراً من الناس، وعلم المؤمن أن حبها رأس كل خطيئة وأنها متاع رخيص خسيس زائل، فمهما أقبلت فهي مدبرة ومهما أعطت فهي مفقرة، ومهما جمعت فهي مفرقة، فهي دار الشرور والغصص والأمراض والمصائب والأكدار، فمن صح إيمانه واستقام قلبه لم يركن إليها ولم يخسر من أجلها، فهي دار من لا دار له ويجمع لها من لا عقل له، فأمنها مشوب بالخوف وصحتها بالسقم وزيادتها بالنقصان، ولما نزلت بقلوب أكثر المسلمين أصبحوا من أجلها يحبون ويبغضون ولها يكدحون ويتنافسون، وعليها يصبحون ويمسون. فلما كانوا كذلك ضعف هم الآخرة في القلوب ونسي اليوم الموعود، فضعف أثر الموعظة وقل الاعتبار والتدبر للقرآن ونسي الاستعداد والوقوف بين يدي الله لأن الدنيا غمرت القلوب وطغى التفكير فيها وشهواتها على أي همٍّ فمن صح إيمانه لم يغتر بها وأخذ منها لآخرته، ولم تأخذ منه وعلم أن كل يوم فيها يناديه ويقول:

(يا ابن آدم أنا يوم جديد وعليك شهيد)[1] وسأودعك إلى غير رجعة فأودعني ما شئت من خير أو شر. قال تعالى مخبراً عن حقيقتها ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾[2].

قال الشافعي رحمه الله:

ومن يذق الدنيا فإني طعمتها   وسيق إلينا عذبها وعذابها
وما هي إلا جيفة مستحيلة   عليها كلاب همهن اجتذابها
فإن تجنبتها كنت سلماً لأهلها   وإن تجتذبها نازعتك كلابها

قال ابن القيم رحمه الله: (ومن أبلغ العذاب في الدنيا تشتيت الشمل وتفريق القلب وكون الفقر نصب عيني العبد لا يفارقه ولولا سكرة عشاق الدنيا بحبها لاستغاثوا من هذا العذاب على أن أكثرهم لايزال يشكو ويصرخ منه).

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يقول الله تبارك وتعالى: «ابن آدم تفرغ لعبادتي أملأ صدرك غنى، وأسدَ فقرك وإن لاتفعل ملأت يديك شغلاً، ولم أسد فقرك**» رواه الترمذي وحسنه.

قال بعض السلف من أحب الدنيا ليوطنْ نفسه على تحمل المصائب (ومحب الدنيا لا ينفك من ثلاث: هم لازم، وتعب دائم، وحسرة لا تنقضي) وذلك أن محبها لا ينال منها شيئاً إلا طمحت نفسه

---

(١) من قول الحسن البصري رحمه الله.
(٢) سورة الحديد، آية: ٢٠.

إلى ما فوقه كما في الحديث الصحيح أن النبي ﷺ قال: «**لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى لهما ثالثاً**» رواه أحمد والبخاري ومسلم.

وكتب الحسن البصري إلى عمر بن عبد العزيز وفيه: (ولقد عرضت على نبينا بمفاتيحها وخزائنها لا ينقصها عند الله جناح بعوضة، فأبى أن يقبلها كره أن يحب ما أبغض خالقه أو يرفع ما وضع مليكه. زواها عن الصالحين اختيارًا، وبسطها لأعدائه اغتراراً، فيظن المغرور بها المقتدر عليها أنه أكرم بها، ونسى ما صنع الله عز وجل برسوله حين شد الحجر على بطنه)[1].

ثالثا: إذا صح الإيمان صار اهتمام العبد بأعمال قلبه أعظم من اهتمامه بأعمال جوارحه، لأن المدار على ما في القلب والجوارح له تبع، فالقلب هو الملك والجوارح هي جنوده، قال رسول الله ﷺ: «**ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح سائر الجسد وإن فسدت فسد سائر الجسد ألا وهي القلب**» رواه البخاري.

فما ضعف أثر العبادة على السلوك إلا بسبب الغفلة عن أعمال القلوب، ولما ذهب الخشوع في الصلاة والتدبر فيها صار كثير من المصلين لا تنهاهم صلاتهم عن الفحشاء والمنكر، وصار صيامهم وزكاتهم وكل عباداتهم أعمالاً لم تتحقق فيها التقوى ولم تؤثر في سلوكهم ولم ينزل في قلوبهم خوف الله ورجاؤه، فغلبت على العبادات الشكلية دون المضمون والعادة دون العبادة.

---

(١) إغاثة اللهفان. ج١، ص٣٦ وما بعدها باختصار.

وأصبح معظمها رسماً وصورة لا برهاناً وحقيقة، فترى الساجد الباكي يتعامل بالربا الصريح بكل ارتياح، وترى التالي لكتاب ربه يبيت عاكفاً على ألوان الملاهي والمنكرات، وترى الذاكر لله الملبي الطائف الساعي تراه وقد تلوث بصنوف من الشرور والسيئات الظاهرة والباطنة، وترى اهتمام الحاج والمعتمر بمؤنة العمرة والحج والإعداد لها من المسكن والمأكل والراحة أعظم بكثير من محافظته على الخشوع في صلاته وجلوسه في الحرم للتعبد والتذكر.

وبالجملة فإن أعمال القلوب كالخشوع والتضرع والإنابة والخوف والرجاء والاستغاثة والمحبة والتوكل وشهود مشهد الإحسان من الله وكمال المراقبة والصدق والإخلاص ومعاهدة القلب وسقيه بماء التقوى والحذر عليه من الفساد والرياء والسمعة والعجب والإدلال هذه الأعمال وغيرها تشتد عناية العبد بها ومعالجتها إذا صح إيمانه، والجزاء من الله على الأعمال بحسب ما في القلوب من الصدق والإقبال على الله وإظهار الذل والفقر والمسكنة قال تعالى ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾[1] فقد يصلي رجلان في موقف واحد وتجد بينهما من الفرق كما بين السماء والأرض.

قال ابن القيم رحمه الله: (إن الأعمال تتفاضل بتفاضل ما في القلوب) وإذا لم تصاحب أعمال القلوب أعمال الجوارح فإن العبادة لا تثمر لصاحبها لذة وحلاوة ولا انشراحاً ولا زيادة في الإيمان فتفقد

---

(١) سورة الشعراء، الآيتان: ٨٨-٨٩.

العبادة روحها وهذا هو حال الغالب من المسلمين .

رابعاً: إذا صح الإيمان صدقت الأخوة في الله، واستشعر المؤمن التقرب إلى الله، بنفع أخيه المسلم وخدمته والذب عن عرضه وستر زلته وإطعامه إذا جاع وتفقد حاله والوقوف معه والعطف عليه، فليست الأخوة شعاراً يرفع ودعوى تقال ومثالية فارغة، ولكنها واقع ملموس وأثر ترغم فيه النفس على البذل والتضحية والصبر على الخدمة وإعزاز عرض المسلم ودمه وماله.

وليست الأخوة مؤانسة فقط وقت السعة والرخاء ثم تعود إلى معاداة في حال اختلاف وجهات النظر ومخالفة الرأي، فحينئذ تنسى الأخوة وحقوقها وتنتهك الأعراض وتمزق أواصر المحبة.

سبحان الله أين المنهج الشرعي في عرض المسلم؟ ووجوب مناصحته وستر زلته وتحريم هجره، وأين نحن من قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾(١)، وقوله ﷺ: «**كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه**» رواه البخاري.

لماذا يوسّع الخلاف؟! ونسعى بالنميمة ونقع في الموبقات المهلكات؟ الجواب واضح، إنه لحظ النفوس وطاعة الهوى والشيطان والتعصب الأعمى.

ومَن المستفيد من التجريح وإسقاط إخوانك المسلمين وإساءة

---

(١) سورة الحجرات، آية: ١٠.

الظنون بهم وإفساد ذات البين التي تحلق الدين وتفرق القلوب وتشكك الناس وتجعلهم يفقدون مصداقية الدعاة وأهل الخير؟!

فيا من كنت كذلك هل تريد أن يعرض الناس عن الخير ويقولون إذا اصطلحتم أيها الدعاة فأتوا إلينا؟ وهل تريد أن يصرف حماس الناس للخير وإقبالهم عليه، إلى الانشقاق والتحزب وملء الصدور بالإحن والمخازي؟! إن دين الله جاءنا ليصلح حالنا ويجعلنا أخوة متحابين لا خصماء متضادين، ويربي فينا الأخوة والنصرة والصبر والعفو.

إن من حقوق إخواننا المسلمين والدعاة خاصة أن ندعوا لهم ونضع أيدينا في أيديهم، وإن صدر منهم ما نراه خطأ فلنبادر بمناصحتهم غيرة لله لا لحظوظ أنفسنا، فمن استجاب فالحمد لله، ومن لم يستحب فلا يجوز أن نكون عونا للشيطان عليه، ولا أن نستحل عرضه، ولا أن نفرح بمساءته خصوصاً إذا خالفناهم فيما هو من مواطن الاجتهاد.

وحتى من خالفنا فيما فيه نص فنسمع ما عنده ونبين له الحق، فإن رجع وإلا فلا نوافقه في تلك المسألة الواحدة، ولانرفض ما عنده من خير أصاب فيه الحق، وكم في تاريخ المسلمين من خلافات بين علمائهم في الفقه ورجال الأحاديث ومسائل كثيرة، فما دام أخوك المسلم من أهل السنة والجماعة الذي لا تعرفه ببدعة، فهو على الحق والخير وإن اختلفت معه واختلف معك فيماهو من مواطن الاجتهاد، وللرأي فيه مساغ. وهل سوغ للصالحين أن يشنعوا ويؤذوا من خالفهم[١].

---

(١) انظر للاستزادة من رفع الملام عن الأئمة الأعلام لشيخ الإسلام ابن تيمية.

إن الأخوة الصادقة أن تحب لأخيك ما تحب لنفسك لقول النبي ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**»[(١)]، ومن أبرزه مظاهر تفريطنا في حقوق إخواننا المسلمين هو نسيان مصابهم وما هم فيه من جوع ومآسي وأمراض وخوف وتشريد وقهر وحرمان، وهم مع ذلك يشعرون بأننا مشغولون بتكميل حوائجنا وزينتنا من مراكب ومساكن ومَآكل، والبحث عن الرفاهية حيث يعاني بعضنا من السمنة وكيفية تنظيم الأكل والمحافظة على الوزن، فأين الشعور بالجسد الواحد؟ وأين تحقيق الأخوة الصادقة؟ وهل نظن أننا بمنجاة من أن يسألنا ربنا عنهم وهم في لهيب الحرمان تفتك بهم الفتن ويمزقهم الأعداء وتتكالب عليهم الدنيا متآمرة؟ وأين الدعاء لهم؟ وأين تخصيصهم بشيء من المال يسير استخلفنا الله عليه ليبلونا، فأموالنا ليست لنا، وإنما هي ملك لله قد جعلها الله أمانات عندنا، فهل نضع الأمانة حيث يريد الله، أم نصرفها فيما تشتهي النفوس وفيما يجملنا عند الناس حتى ننال منهم المديح والإعجاب في سيارتنا الفخمة المتجددة وفي مناسباتنا التفاخرية، فأين الصدق في النفقة؟ وهل نظن أننا بأمن من أن يقع علينا ما وقع على إخواننا الجوعى والمشردين والخائفين المقهورين.

ولقد حكى الاتفاق القرطبي وغيره من أهل العلم: (على أنه إذا قامت بالمسلمين حاجة بعد أداء الزكاة فإنه يجب صرف المال إليها

---

(١) رواه البخاري.

وفي الإقناع وغيره؛ وإطعام الجائع ونحوه واجب إجماعًا)[١] فأين أرصدتنا في البنوك؟ فما أعظم غفلتنا الكبيرة عن واجباتنا الشرعية، والله هو الرزاق الذي بيده خزائن السموات والأرض، فليس البخل والحرص على المال هو الذي يجمع المال ويحميه من إهلاكه، ولكن الشيء الذي يبارك المال ويزكيه وينميه ويطهره هو إنفاقه لوجه الله، وبذله فيما يرضيه مع الصدق والإخلاص والبعد عن الرياء والسمعة ومحبة إعلام الناس، قال رسول الله ﷺ: «**ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبدًا بعفو إلا عزًا، وما تواضع أحد لله إلا رفعه**». رواه مسلم، وقال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾[٢]، وقال الله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾[٣].

وقال ﷺ: «**إذا تصدق أحدكم بعدل تمرة من كسب طيب والله لا يقبل إلا الطيب فإن الله يتقبلها بيمينه ويربيها كما يربي أحدكم فلوه حتى تكون كالجبل العظيم**» رواه البخاري، وقال ﷺ: «**فاتقوا النار ولو بشق تمرة، فمن لم يجد فبكلمة طيبة**» رواه البخاري. فأين إيماننا عن تدبر مثل هذه النصوص العظيمة؟! اللهم غفرًا.

فيا أيها المحب... إن الكلام عن الأخوة ذو شجون، فليس المراد فقط أن تكون ذا مال حتى تتصدق أو تأتيك إساءة فتصفح، أو يكون لك حق فتتركه أو تكف لسانك عن سب أخيك. كل هذا وغيره

---

(١) حاشية الروض المربع لابن قاسم ج٣ ص٣٤٤.
(٢) سورة سبأ، آية: ٣٩.
(٣) سورة البقرة، آية: ٢٤٥.

مطلوب شرعًا ولكن معنى الأخوة أشمل وأعم وأكبر وأعظم من ذلك. إنها عبادة من أجلّ العبادات تستشعر في كل عمل تبذله لأخيك وكل كلمة تقولها له وكل نية تبيتها في قلبك من محبة وشفقة، تستشعر في كل ذلك أنك تتقرب إلى الله بذلك سواء عرفت ذلك الأخ أم لم تعرفه وسواء أحسن إليك أم أساء، وسواء كان من داخل بلدك أم من خارجه، وحينما تقدم له معونة وإحسانًا لا تنتظر منه الشكر، ولا تتطلع نفسك إلى مقابلة ذلك بإحسان منه، وإنما تتطلع إلى الجزاء من صاحب الجزاء الأعظم.

اكتف بذلك عن النظر إلى الخلق، وتخلص من هتاف النفس وداعيها الذي يدعو إلى الأنانية والأخذ بالثأر والاستئثار بالنعمة دون الآخرين، فما أجمل العفو والإحسان وما أكرم صاحبه! وما أعز نفسه وأحلاها حين يترفع عن مطامع الدنيا الدنية وحطامها، وحينما يسمو بقلبه الكبير عن الهنات والزلات والعثرات فيرتفع عنها بحسن خلقه وصفاء ضميره الحي وحلاوة إيمانه.

قال ﷺ: «**ما تواضع أحد لله إلا رفعه**» رواه مسلم. ألا تريد أيها المؤمن المتيقظ أن يحبك الله ويعفو عنك ويدخلك في رحمته، فإن الله يحب المنفقين والعافين عن الناس والمحسنين والصابرين، فإذا أحبك الله وقبل منك وأعطاك فمن ترجو بعده ومن تؤمل، وأي شيء تريد أكثر من الجنة: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ۝٣٥﴾[1]. قال سبحانه

(١) سورة ق، آية: ٣٥.

﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٥٦﴾[١].

قال القرطبي: فنفسك، خذ منها ولا تأخذ لها، وانتصف منها ولا تنتصف لها، وكن عليها لا معها.

أما التشفي والانتقام والضن عن إخوانك بجودك وإحسانك، وأما الدفاع والخشونة والمقاصة وإساءة الظن والكلام في الآخرين والغضب والانفعال وإطالة اللسان والغيبة والنميمة والحسد وكثرة الكلام... فهذا الكل يجيده، وهو أمر سهل على النفوس، بل النفوس تتشوق إليه وتفرح فيه، وهنا يأتي دور صاحب الإيمان الصحيح الذي يمسك بزمام نفسه المتغلب عليها، فيرغمها ويتحامل عليها ليكون الباذل المسامح الرضي الكريم الشهم العزيز الصابر الذي طهر قلبه من الأوضار وإساءة الظنون، ولسانه من القيل والقال، واستمع إلى كلام ربك حيث يقول: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ۝٣٤﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿۞ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ۝١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝١٣٤﴾[٣].

وقال ﷺ: **«الإيمان الصبر والسماحة»**[٤].

---

(١) سورة الأعراف، آية: ٥٦.
(٢) سورة فصلت، آية: ٣٤.
(٣) سورة آل عمران، آية: ١٣٤.
(٤) صحيح الجامع ج٢ ص٤١٥.

خامسًا: إذا صح الإيمان صدق العبد في طلب مرضاة ربه وبحث عن كل سبيل يوصل إليه، وعلم أن إراحة النفس واطمئنانها هناك في الجنة إن شاء الله؛ لأن الدنيا دار البذل والعمل والجد والاجتهاد للصادقين الذين تتحرك قلوبهم فلا تهدأ ولا تقف قبل الموت، فالمشمر لا يتخذ طريقًا واحدًا للوصول إلى ربه إنما هو مجاهد يضرب في كل طريق بسهم يتقلب بين الدروب فهو بين طلب علم وصلاة وصدقة وذكر وجهاد وإحسان إلى الخلق وحج وصيام وصبر ومعاناة، فهذه حاله لا تقف عند طريقة واحدة وعمل واحد ليقول هذا دربي واختصاصي قال الرسول ﷺ: «**لن يشبع مؤمن من خير حتى يكون منتهاه الجنة**»[1].

والصادق لا تمنعه نفسه أو منزلته وجاهه وهيئته أن يطعم مسكينًا أو يطرق باباً ليغيث ملهوفًا أو يزور أحدًا من أوساط الناس خامل الذكر، أو يمسح رأس يتيم، أو يقدم خدمة لمحتاج نعم لا تمنعه نفسه التي تريد التوقير وعدم سقوط الهيبة ومجالسة أصحاب الشأن ولا يمنعه علمه وقيمته عند الناس ما دام يريد وجه الله بل كلما ازداد الصادق علمًا ازداد خشية لله واحتقارًا لنفسه وشغفًا ببذل الخير والإحسان، وازداد معرفة بربه العظيم المتعال، فانظر في نفسك فلا تجعل وقتك كله فسحة للتفكه والأعمال المباحة العادية أو لرحلات المؤانسة والأسفار التي لا تحمل هدفًا أو للقاءات التي ليس من ورائها

---

(١) رواه الترمذي.

فائدة تقربك إلى ربك.

وتلفت مرة ثانية لتجعل كل وقتك في سبيل الله وحرك قلبك بما عليه أسلافنا الصالحين من حركة دوارة بين العلم والجهاد والدعوة وتوديع السكون، فالرجل الإيجابي الفعال هو الذي يتعب أكثر مما يستريح ويعطي أكثر مما يأخذ، ويعمل أكثر مما يتكلم، ولا تحيا في هذه الدنيا حياة الآمنين في رغد العيش والظل الظليل والماء البارد والجو الأنيس، لا وإنما كابد...

واعلم أنه إذا كان همك وعملك في سبيل الله فإن هذا علامة السعادة في الدنيا والآخرة، فافرح بذلك أعظم الفرح فإن الله لا يعطي فعل الخيرات إلا من يحب، وهذا هو التوفيق، فالذكر والقرآن والجهاد والصلاة والزكاة والصيام والحج والدعوة وكل الطاعات قد حُرم منها المحرومون المغبونون وأعطاها الله لمن أحبهم ووفقهم، وهداهم وأنار قلوبهم وشرحها للإيمان، فاسأل ربك الهداية والتوفيق والإعانة والقبول والثبات، وقد قيل إذا أردت أن تعرف قدرك عند السلطان فانظر في أي الأعمال يوليّك.

سادساً: إذا صح الإيمان أشغل العبد لسانه وقلبه بذكر الله. قال الله تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾[١] وإنما أفردت الذكر من بين العبادات سوى الصلاة، لأنه خير الأعمال ولأن الغفلة عنه كثيرة على سهولته ويسره، فالذكر هو قوت القلوب ودواء الأرواح

---

(١) سورة الرعد، آية: ٢٨.

وسكينة النفوس فبه يجد الذاكر الحلاوة والأنس والنعيم واللذة، قال ابن القيم رحمه الله: (وبه تستدفع الكربات وترفع الدرجات وتُقال العثرات وبه يطفىء الذاكرون التهاب الحريق ويقاتلون قطاع الطريق)[١].

والذكر يربط المسلم بخالقه، ففيه حياة القلوب وحفظها، وقد ذكر ابن القيم رحمه الله في كتابه المبارك «الوابل الصيب» ثلاثًا وسبعين فائدة للذكر منها: أنه يطرد الشيطان، ويرضي الرحمن، ويزيل الهم والغم عن القلب، ويورث العبد المراقبة لله والإنابة له والقرب منه، ويفتح له بابًا عظيمًا من أبواب المعرفة، ويورث الهيبة لربه عز وجل وإجلاله ويورث ذكر الله تعالى له، لقوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾[٢]، ولو لم يكن في الذكر إلا هذه وحدها لكفى بها فضلاً وشرفًا.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: (الذكر للقلب مثل الماء للسمك، فكيف يكون حال السمك إذا فارق الماء) وقال ابن القيم: حضرت شيخ الإسلام مرة صلى الفجر ثم جلس يذكر الله تعالى إلى قريب من انتصاف النهار ثم التفت إليَّ وقال: هذه غدوتي ولو لم أتغدها لسقطت قوتي. والذكر يزيل الوحشة بين العبد وبين ربه وإذا انصرف العبد إلى ربه بذكره في الرخاء عرفه في الشدة الذكر سبب لاشتغال اللسان عن

---

(١) مدارج السالكين (منزلة الذكر).
(٢) سورة البقرة، آية: ١٥٢.

الغيبة والنميمة والكذب والفحش والباطل، فإن العبد لابد له أن يتكلم فإن لم يتكلم بذكر الله وذكر أوامره تكلم بهذه المحرمات أو بعضها، ومن عود لسانه ذكر الله صان الله لسانه عن الباطل واللغو ومن يبس لسانه عن ذكر الله ترطب بكل باطل ولغو وفحش ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وهو أيسر العبادات ومن أجلها وأفضلها؛ لأن حركة اللسان أخف حركات الجوارح وأيسرها، ولو تحرك عضو من أعضاء الإنسان في اليوم والليلة بقدر حركة لسانه لشق عليه غاية المشقة، بل لا يمكنه ذلك، والذكر غراس الجنة لقول النبي ﷺ: «**لقيت ليلة أسري بي إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام، فقال: يا محمد اقرىء أمتك مني السلام وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة عذبة الماء وأنها قيعان وأن غراسها: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر**» رواه الترمذي وأحمد.

وعن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من قال سبحان الله وبحمده غرست له نخلة في الجنة**» الترمذي. وقال حسن صحيح.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «**لأن أقول سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر أحب إليَّ مما طلعت عليه الشمس**» رواه مسلم[(١)].

ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليمًا، فيكف تضيع منا الساعات بل الأيام والشهور والسنوات ونحن غافلون عن مثل هذا سواء في

---

(١) الوابل الصيب.

السوق أو العمل أو البيت أو المسجد. أجور أعظم من الجبال وأكثر من زبد البحار، ولكن لزهدنا في الخير وقساوة قلوبنا واشتغالها بالسفاسف نُحرم من الخيرات، وبقية العبادات من صلاة وزكاة وصوم وحج وغيرها هي من ذكر الله لقوله تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾(1) وقوله عن الحج: ﴿۞ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ﴾(2).

وهنا فائدة. قال ﷺ: «**ألا أخبركم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من إنفاق الذهب والفضة وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم، أو يضربوا أعناقكم، قالوا: بلى يا رسول الله. قال: ذكر الله**» رواه أحمد.

فهل الذكر أفضل من إنفاق الذهب والفضة والجهاد في سبيل الله وهل الذكر هو خير الأعمال؟ يرى بعض العلماء كابن حجر والشوكاني أن الذكر إذا كان في القلب واللسان، وصَاحبَ الذكرَ تعظيمُ الله والتدبرُ والخشوعُ والإنابة إليه فإنه يكون أفضل الأعمال. والله أعلم.

سابعًا: إذا صح الإيمان وحيا القلب تعلق العبد بالله تعلق المضطر المنيب المنكسر المسكين الضارع الذي يضع خده على باب مولاه مظهرًا ومستبطنًا الفقر والحاجة وأنه بالله وإلى الله لا بنفسه الضعيفة.

قال ابن القيم في إغاثة اللهفان: (ولا يزال يضرب هذا القلب السليم على صاحبه حتى ينيب إلى ربه ويخبت إليه ويتعلق به تعلق

---

(1) سورة العنكبوت، آية: ٤٥.
(2) سورة البقرة، آية: ٢٠٣.

المضطر الذي لا حياة له ولا فلاح ولا نعيم ولا سرور إلا برضاه وقربه والأنس به، فبه يطمئن وإليه يسكن ويأوي وبه يفرح وعليه يتوكل فإذا حصل له هذا سكن وزال اضطرابه، وانسدت تلك الفاقة، فإن في القلب فاقة لا يسدها شيء سوى الله أبدًا، وفيه شعث لا يلمه غير الإقبال عليه، وفيه مرض لا يشفيه غير الإخلاص له، فحينئذ يباشر روح الحياة، وإذا تعلق القلب بالله استغنى به عن كل من سواه فيستغني عن المخلوقين ويعظّم ربه)[١] في نفسه ولسانه فلا يسأل المخلوقين ولا يرجوهم ولا يسترزقهم أو يشتكي إليهم، لأنه غني بربه راض بما قسم له مولاه، فهو يعتقد أن اختيار الله له أعظم من اختياره لنفسه.

قال شيخ الإسلام رحمه الله[٢]: (فالعبد لابد له من رزق وهو محتاج إلى ذلك، فإذا طلب رزقه من الله صار عبدًا له فقيرًا إليه، وإذا طلبه من مخلوق صار عبدًا لذلك المخلوق فقيرًا إليه، ولهذا كانت مسألة المخلوق محرمة في الأصل وإنما أبيحت للضرورة، وفي النهي عنها أحاديث كثيرة كقوله ﷺ: «**لاتزال المسألة بأحدكم حتى يأتي يوم القيامة وليس في وجهه مُزعة من لحم**» رواه البخاري ومسلم والنسائي. وقوله ﷺ: «**ما أتاك من هذا المال وأنت غير سائل ولا مستشرف فخذه وما لا فلا تتبعه نفسك**» رواه البخاري ومسلم. فكره أخذه مع سؤال اللسان واستشراف القلب، وقال ﷺ: «**من يستغن يغنه الله ومن يستعف**

---

(١) إغاثة اللهفان ج١ ص٧١. باختصار.
(٢) العبودية لشيخ الإسلام ص ٩٠.

يُعفّه الله ومن يتصبَّر يصبره الله وما أعطى أحد عطاء خيرًا وأوسع من الصبر» رواه البخاري ومسلم. وقول النبي ﷺ لابن عباس: «**إذا سألت فاسأل الله**» الترمذي وأحمد والحاكم، ومنه قوله تعالى: ﴿فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ﴾(١). فلا يسأل رزقه إلا من الله، ولا يشتكي إلا إليه، كما قال تعالى عن يعقوب: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى﴾(٢). وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقرأ في الفجر فمر بهذه الآية في قراءته فبكى حتى سُمع نشيجه من آخر الصفوف).

ثامنًا: إذا صح الإيمان قام العبد بالدعوة إلى الله يبلغها وينشرها بما يستطيع بلسانه وقلمه وماله ودلالته وجاهه وتعليمه وتشجيعه وحضوره وخدمته. والأبواب مفتوحة، فهل من داخل، ومن فضل الله وإحسانه إلينا أن جعل أبواب الدعوة إليه ليست خاصة بالعلماء والخطباء وأرباب البيان وفصاحة اللسان لا وإنما كل له أن يدعوا ويُذكّر ويأمر وينهى ويُعلم ويدل على الخير بما يقدر عليه ولا يشترط للداعية أن يبلغ مرتبة الاجتهاد أو الفتيا إنما لابد أن يَعْلمَ الشيء الذي يدعو إليه ويعرفه لقول النبي ﷺ: «**بلغوا عني ولو آية**» رواه البخاري.

فبلغ عن ربك وادع إلى سبيله تكن من أشرف الخلق وأعزهم في الدنيا والآخرة وامتهنْ أعظم وظيفة ألا وهي وظيفة الأنبياء والمرسلين، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا

---

(١) سورة العنكبوت، آية: ١٧.
(٢) سورة يوسف، آية: ٨٦.

وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ [١]. وقال ﷺ: «**إن الله وملائكته وأهل السموات والأرض حتى النملة في جحرها وحتى الحوت يصلون على معلم الناس الخير**» رواه الترمذي، وقال حديث حسن.

فما أعظم الفرصة أمام الصادق الذي يريد أن يلحق بركب المصلحين، وأن يقول له الناس: جزاك الله خيرًا، لقد ذكرتنا بالله ونصحتنا لله، وما أعظم الفرح الذي ينتاب قلب الداعية حين يُدعى له، ويُؤمن على دعائه يوم يقول: اللهم اغفر لنا وارحمنا ووالدينا وجميع المسلمين، فهل يظن أن الله يخيب رجاء الصادقين وأمل المخبتين، كلا فإن الله لا يضيع أجر المحسنين الذين تحركوا لإعلاء كلمته والجهاد في سبيله.

ثم هل فكرت أيها المبارك في أن يدوم لك عمل صالح بعد مماتك في بقاء تعليمك ونصحك وأثرك على الناس في ما تنشره من خير فإن فضل الله عظيم حيث يجري لك ذلك العمل حتى تقوم الساعة.

وهل تخلصت من وساوس الشيطان؟ وأوهام المُخذلين المتثاقلين حينما يزهدونك في الدعوة والدلالة عليها ويقولون: إن الناس معرضون ولست أهلاً للدعوة، فلن ندخل مع هؤلاء المحرومين في نقاش ولكن كفانا كتابُ ربنا وسنة نبينا في أن الأجر والثواب ليس مشروطًا باستجابة الناس أو هداية قلوبهم، لا بل هو مشروط بأن تدعو فقط صادقًا مخلصًا تريد الخير للناس، فهذا أشرف الخلق أجمعين

---

(١) سورة فصلت، آية: ٣٣.

وإمامهم في الدعوة ليست له النتائج وأمور القلوب التي هي بيد علام الغيوب. قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ۝٥٦﴾[1].

وإذا عجز الشيطان عن أحد في تثبيطه عن الدعوة دعاه إلى الاقتصار والتحجيم، وقال له: هذه قدرتك وإمكاناتك، وضخم في نفسه وعظم ما يقوم به ليكتفي به ويقتصر عليه، وهذه حيلة شيطانية وأسلوب ماكر، وإلا فلو استعملنا كل قدراتنا وإمكاناتنا لتحقق الخير الكثير وعم النفع وارتفع الجهل وقلت الغفلة وتضاءل الشر، وَلَمَا سود وجه الحياة كثرة الفجور والمعاصي ولصلحت الحال ورضي الله عنّا.

ولو تمعرت وجوهنا وحزنت قلوبنا وقمنا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لقل الشر وكثر الخير واستجاب الله دعاءنا وتيقظ الغافلون اللاهون.

ثم أليس من العيب والفضيحة أمام الله أن تكون الدعوة إليه لا تحظى منا إلا بفضول الأوقات والأموال والاهتمامات، أليس ذلك مرده إلى ضعف اليقين وغلبة النفس وطغيان الدنيا في القلوب، وإلا فإن الذي يريد أي شيء لابد أن يسعى جادًا في تحصيله، فالذي يريد وجه الله وثوابه كيف يرجو ذلك ـ وهو المطلب الأعظم والغاية الكبيرة من خلق الإنسان ـ كيف يرجو هذا وهو المتثاقل المتفكه البارد في دعوته؟! لأننا نرى أن من يريد بناء غرفة واحدة فإنه يجهد في ذلك

---

(١) سورة القصص، آية: ٥٦.

ويلاحق أنفاسه في تكميلها وربما استدان لتجميلها وتزيينها، فكيف بمن يريد الجنة التي عرضها السموات والأرض؟ وكيف بمن يريد أن يبني النفوس ويربي على الفضائل؟ ألا يحتاج منه ذلك إلى البذل والجهد والعطاء. !

وهنا إليك يا صاحب الإيمان ويا من حركك الشوق والحنين إلى مرضاة ربك وتصحيح مسيرتك الإيمانية **إليك هذه الوقفات في الدعوة إلى الله:**

الأولى: بيِّت النية في التقرب إلى الله لتدعو إليه سبحانه لا لنفسك ورأيك وحزبك وفلان وفلان. قال تعالى: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾[1].

الثانية: عليك بالاختصاص في أي درب من دروب الدعوة حتى لا تتفرق الهمة فتضعف الإرادة، واجعل لك أصلاً هو الأساس في عملك الدعوي المُعين وما سواه يبقى فروعًا بالنسة لك، فتعاون معها فيما يسمح به وقتك وجهدك، وكل ما يتعارض مع ذلك الأصل فاتركه حتى تُنتج فيه وتثمر الدعوة وتستطيع أن تفكر له، وكثرة التردد فيه تجعلك أكثر خبرة وأحسن مهارة وأقدر عليه من غيرك الذي لم يتخصص له، والنفس تريد التذوق وتهوى التغيير والتنقل ولكن الموضوع من أصله مجاهدة للنفس وبحثاً عن النافع المجدي بعد سؤال الله الإعانة.

---

(١) سورة يوسف، آية: ١٠٨.

الثالثة: كل مسلم صادق في دعوته منهجه الكتاب والسنة فهو على خير إن شاء الله وعلى ثغرة من ثغرات الإسلام، ولابد من تنوع الأساليب والطرق لكثرة الثغرات التي تتطلب عملاً، فهذا في حيه وآخر في ميدان عمله وثالث في الخطابة وحاجات الناس ورابع مع المساكين وخامس هنا وسادس هناك.

وهكذا فلا يصح أبدًا أن نحجر على الناس ونسوقهم معنا فيما نراه أجدى أو أن نحتقر أدوارهم وجهودهم أو نلغي اهتماماتهم وقدراتهم فما يحسنه هذا لا يحسنه ذاك، وما تراه أنت مهمًا قد لا يراه الآخر كذلك، وكلانا على خير إن شاء الله.

ومن الخطأ أن نشعر أننا أضداد ويحصل بيننا التنافس والتزاحم إذا كنا صادقين لأننا نسعى للوصول لهدف واحد، ومن العجُب والكبر أن يعظم الواحد دوره وإنجازاته وينتقص أدوار الآخرين، وهل يريد أن تكون الدعوة إلى الله سبحانه سبيلاً إلى بناء مجده الشخصي وسمعته ليشار إليه بالبنان.

الرابعة: الحذر من أن تتحول الدعوة إلى الله إلى مصاولات وانتقادات وتجريح وتفريق وإسقاط للآخرين، فحينئذٍ تكون الدعوة سعيًا للإفساد وشتات القلوب وانطوائها على الغل والحسد والفرقة والاختلاف والأصل أن تكون الدعوة للإصلاح وجمع الكلمة ووحدة الصف، وأما العيوب والمآخذ والأخطاء فهي مصاحبة للبشر لا يستطيع أحد أن ينفك عنها مهما كان إلا الأنبياء والمرسلين المعصومين.



طرق واضحة في الشرع يبعد أن يجهلها من يدعو حب الهوى والظنون السيئة، ولا يستطيع أحد أن يسلم من سواء في أسلوبه أو فهمه أو اجتهاده، وسواء في بيته أو وظيفته أو دعوته أو تعامله مع جيرانه ورفقائه ومع الناس أجمعين، فإذا أردنا أن نسقط ونجرح ونعيب من وقع في خطأ فمن سيبقى لنا إذًا.

وهل يصح أن نطلب من أي إنسان أن يكون كاملاً في كل شيء، ومن هو ذاك الكامل المطالب بالكمال، فيجب أن تكون مساعي الدعوة ودروبها يكمل بعضها بعضًا، ويسد أحدنا ما تركه الآخر، وأن نجعل حسن الظن هو الأصل في كل ماصدر من تقصير أو خطأ من داعية على الكتاب والسنة فنحمله على حسن الظن، وعلى أحسن المحامل وإذا لم نجد له عذرًا قلنا: لعل له عذرًا لم نعلمه، وهو منهج شرعي لأن قلوب الناس ونياتهم ليس من شأننا التنقيب عنها وإساءة الظن بها، وأما موارد الاجتهاد التي للاجتهاد والرأي فيها مجال، فلا يجوز لنا شرعًا أن نحتكر آراءنا لتكون هي الصواب فقط وما عداها مرفوض وهذا من ضيق الأفق وقصور العلم أن نتحجر على آرائنا ونتعصب لها ونوالي ونعادي عليها ونجعلها هي المعيار في الحكم على الآخرين.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: (ومن نصب شخصًا كائنًا من كان فوالى وعادى على موافقته في القول والفعل فهو من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعًا، وإذا تفقه الرجل وتأدب بطريقة قوم من المؤمنين مثل

اتباع المشايخ فليس له أن يجعل قدوته وأصحابه هم العيار فيوالي من وافقهم ويعادي من خالفهم، فينبغي للإنسان أن يعوّد نفسه التفقه الباطن في قلبه والعمل به، فهذا زاجر وكمائن القلوب تظهر عند المحن، وليس لأحد أن يدعو إلى مقالة يعتقدها لكونها قول أصحابه ولا يناجز عليها بل لأجل أنها مما أمر الله به ورسوله أو أخبر الله بها ورسوله لكون ذلك طاعة لهما)[١].

الخامسة: استشعر المسؤولية في حمل هم الدعوة وتكاليف أعبائها واجعلها هي وظيفتك الأولى التي عليها تصبح، وعليها تمسي بحيث تسري في روحك وسويداء قلبك لتكون هدفك الأول والأخير لتلقى الله وأنت تدعو إليه وتدل على سبيله، وبهذا تسهل عليك الدعوة ولا تجد فيها ثقلاً ولا حرجًا، لأنك صبرت نفسك عليها فاستسغتها وشربت مرها فاعتدته، وهذا بخلاف من يجعل دعوته تبعًا للمناسبات فإن سنحت فرصة شارك أو دعي أحيانًا لعمل خيري، فمرة يعتذر ومرة يجيب، ويريد أن يظل دائمًا محمولاً ومُتابعًا ومُساقًا تحت الضغوط فيظل هذا النوع لم يلبس لباس الدعوة ولم يشربها لتكون هي حياته ومحط آماله وآلامه بحيث يستغل المناسبات ولا تستغله ويستغل وظيفته ودنياه وعلاقاته لتكون وسائل للدعوة لا أن تكون أسبابًا لانشغاله عنها.

---

(١) الفتاوى. ج٢٠، ص ٨،٩.

تاسعًا: إذا صح الإيمان وتجرد قلب العبد لربه تحرى الحق والعدل والإنصاف وتجنب الكذب والمداهنة والمماراة والتلون والأساليب الملتوية، وصار واضحًا وصريحًا لا تأخذه في الله لومة لائم، فلم يستنكف عن الرجوع عن الخطأ بل يقول بملء فيه أخطأت وأستغفر الله، وهكذا شأن المؤمن فإنه يحتقر نفسه ويتهمها ويظن فيها كل سوء، فهي محل الضعف والهوى والشهوة والنقص مع إحسانه الظن بالآخرين وتقدير آرائهم والتأدب معهم، فيكون الحق رائده والعدل إمامه، وما تشعبت بنا السبل وما ضحك علينا الأعداء وضاعت هيبتنا وعشعش الشيطان في قلوبنا إلا بسبب أنفسنا التي غزاها الكبر وأفسدها العلو.

وما كثر الخلاف وصنفت الردود الكثيرة في النقد والتجريح إلا بسبب الأهواء وعدم الإنصاف وماساءت الأحوال ولا تداعت علينا الأمم من قلة، ولكن السبب الغثائية وعدم صفاء النفوس وعدم طهارة القلوب، قال رسول الله ﷺ: «**يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها. قالوا يا رسول الله: أمن قلة نحن يومئذٍ؟ قال: لا أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل**»(١). لأن أسباب الضعف في أي أمة ليست بسبب قوة أعدائها وكثرتهم لا إنما الأسباب داخلية في النفوس والقلوب التي متى ما صدقت وطهرت وصبرت واتقت ربها كتب الله لها الفلاح والنصر والتمكين وصلاح الحال، قال تعالى:

---

(١) أحمد أبوداود صحيح الجامع ج٦ ص٣٦٤.

﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾[١]. وقال تعالى: ﴿فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا﴾[٢].

وإليك -أخي الحبيب- صورة معبرة واقعية حدثت على عهد الرسول ﷺ بينه وبين صحابته الكرام.

قال ابن كثير: وقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾[٣] وهذا السياق في شأن الأوس والخزرج، فإنه قد كان بينهم حروب كثيرة في الجاهلية وعداوة شديدة وضغائن طال بسببها قتالهم والوقائع بينهم، فلما جاء الله بالإسلام صاروا إخوانًا متحابين بجلال الله متواصلين في الله متعاونين على البر والتقوى، ثم قال: ﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾[٤].

وقد ذكر محمد بن إسحاق بن يسار وغيره أن هذه الآية نزلت في شأن الأوس والخزرج، وذلك أن رجلاً من اليهود مر بملأ من الأوس والخزرج فساءه ما هم عليه من الاتفاق والألفة، فبعث رجلاً معه وأمره أن يجلس بينهم ويذكرهم ما كان من حروبهم يوم بعاث وتلك الحروب، ففعل فلم يزل ذلك دأبه حتى حميت نفوس القوم وغضب بعضهم على بعض وتشاوروا ونادوا بشعارهم وطلبوا أسلحتهم وتواعدوا إلى الحرة، فبلغ ذلك النبي ﷺ فأتاهم فجعل يسكنهم

(١) سورة آل عمران، آية: ١٢٠.
(٢) سورة محمد، آية: ٢١.
(٣) سورة آل عمران، آية: ١٠٣.
(٤) سورة آل عمران، آية: ١٠٣.

ويقول: «**أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم**» وتلا عليهم هذه الآية، فندموا على ما كان منهم واصطلحوا وتعانقوا وألقوا السلاح رضي الله عنهم، وذكر عكرمة أن ذلك نزل فيهم حين تثاوروا في قضية الإفك والله أعلم)[١].

فتأمل حال الرسول ﷺ المربي الذي خاف واشتدت كربته عندما كان الخلل والانشطار من الداخل، ثم تأمل يوم الأحزاب عندما علم الرسول ﷺ أن اليهود غدروا ونقضوا عهدهم وتحالفوا مع قريش في وقت عصيب تألبت فيه الدنيا وأحاطت بالمدينة واشتدت بالمؤمنين الكروب، ففي هذا الوقت قال النبي ﷺ: «**أبشروا بالنصر**» لماذا؟ لأن الخلل والمصيبة والكربة من الخارج. هول الأعداء وتآمرهم لا ضعف النفوس والقلوب، فإذا صلحت القلوب مع ربها وعاش المؤمنون أصفياء فلا يضيرهم مكر عدوهم وقوته.

وكلما كان العبد مقيمًا لحظ نفسه طالبًا لإثبات رأيه وذاته ومقدمًا شهوة ترأسه ملتفتًا إلى مايزينه عند الناس متظاهرًا بسداد الرأي ورجاحة العقل وطلاقة اللسان، فكلما كان طالبًا لذلك كان أبعد عن الإخلاص وأقرب إلى الرياء والسمعة وأبعد عن معالجة قلبه وعن النظر في دائه ودوائه، والموفق هو من كان عن حظ نفسه أبعد ولرأيه أحقر، فأبعد هواه ورجع للحق الذي قال بخلافه، وآثر إخوانه بالكلام والمجلس لا يرى لنفسه مقامًا بل يرى أن كل مسلم هو أفضل منه دائمًا

---

(١) تفسير ابن كثير ج٢ ص٨٥ (دار الأندلس).

شغله الشاغل مراقبة هذا القلب والخوف من شموخ النفس وكبريائها ومرادها. قيل إن الخشوع: هو الانقياد للحق، وعلامة ذلك أن يستقبل العبد النصيحة فيما خولف فيه بالقبول والانقياد[(١)].

فتجد في معاملاتنا مع إخواننا وأهلينا وزملائنا الشيء العجيب المنتشر بسبب أهواء النفوس والبعد عن العدل والإنصاف، فمن أجل ألا يقول الشخص أخطأت يظل يحاور ويدور ويعادي ويسيء الظن بالآخرين بل ويكذب من أجل ألا يعترف بخطئه أو بما قال، فانظر إلى ضعف الإيمان وقلة الخوف من الرحمن كيف يصل الحال فينا إلى أن نعصي الله ونفسد ذات البين من أجل حظ النفس وكبريائها.

عاشراً: إذا صح الإيمان استقبل العبد صلاته وعمود دينه بأدب العبودية بين يدي الله خاشعًا متذللاً مستشعرًا هذا الموقف الكريم العزيز بين يدي الجليل بحيث لا ينصرف بقلبه إلى سواه، فيظل جامعًا فكره وهمه إليه واقفًا صافًا قدميه وقوف المستجير المسكين المنكسر يناجي ربه ويعظمه ويستغفره من أعماق قلبه طامعًا في فضله وإنعامه راجيًا وخائفًا ومنزلاً حوائجه فيه ومشتغلاً به عمن سواه، صارفًا قلبه ونظره عن الدنيا وما عليها مُعاركًا لهذه النفس وصابرًا ومصابرًا ومجاهدًا لها حتى لا تلتفت به عن مولاه وخالقه العظيم، فهو يريد أن لا ينصرف عنه ربُّه، وينتقل في هذه الصلاة من رياض إلى رياض من قراءة كلام ربه مع تدبره إلى تعظيمه بالتسبيح إلى دعائه بالسجود إلى

---

(١) شرح الأسباب العشر، لعبد العزيز مصطفى ص ١١٨.

سؤاله المغفرة إلى الاستعاذة به من كل سوء ومكروه.

فما أعظم الموقف وما أجل الموقوف له عندما يقبل العبد بقلبه وجوارحه على ربه يرجوه ويستعطفه بروح المذنب الذليل الفقير المستعين الذي تعرض للفتنة والابتلاء والامتحان في كل يوم يسأل مولاه أن يحفظه ويرعاه ويثبته ويتقبل منه، وأن يهديه ويوفقه ويفتح على قلبه، فإن قبله ظفر بالفوز والفلاح وإن رده فما أعظم الخسران وما أمرّ الحرمان، قيل الخشوع: قيام القلب بين يدي الرب بالخضوع والذل، وقيل الخشوع: خمود نيران الشهوة وسكون دخان الصدر وإشراق نور التعظيم في القلب).

فبالخشوع والتدبر تكون الصلاة قرة العيون ونور الصدور والوجوه. قال الرسول ﷺ: «**وجعلت قرة عيني في الصلاة**»، وبالصلاة الخلاص من كل بلية وفحشاء ومنكر: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾[١] وبالصلاة الحقيقية تصلح بقية الأعمال وتقبل عند الله، وبفسادها فساد الأعمال، وبالصلاة حلاوة المناجاة حيث يترقى العبد في مراقي العبودية ويعرف ربه ويتلذذ بمناجاته فيشعر بالحلاوة واللذة التي لا يعرفها الغافلون وإذا أردت أن تعرف قدرك عند الله فانظر إلى قدر الصلاة عندك وما نصيبك منها، فهي الصلة بين العبد وربه، وهي الحد الفاصل بين الكفر والإسلام، وهي خمس صلوات بأجر خمسين، وهي التي فرضت من فوق سبع

---

(١) سورة العنكبوت، آية: ٤٥.

سموات بين الرب عز وجل ونبينا محمد ﷺ بلا واسطة، وهي التي من حافظ عليها فهو لما سواها أحفظ ومن ضيعها فهو لما سواها أضيع، وهي آخر ما وصى بها الرسول ﷺ أمته فقال: «**الصلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم**» وقال ﷺ: «**إن العبد إذا قام يصلي أتي بذنوبه كلها فوضعت على رأسه وعاتقيه فكلما ركع أو سجد تساقطت**» رواه الطبراني[١].

فما بالنا غافلين عن روح الصلاة وحقيقتها، نؤديها بجوارحنا مع ذهول القلب وغفلته، ومن ثم أصبحت الصلاة غير مؤثرة على سلوك المصلي، فلا تحمل الحرارة والقوة وحضور القلب والتأثر، كان علي بن الحسين رضي الله عنهما إذا توضأ اصفر لونه، فقيل له: ما هذا الذي يعتادك عند الوضوء، قال: أتدرون بين يدي من أريد أن أقوم[٢]. وقال حذيفة رضي الله عنه: إياكم وخشوع النفاق، فقيل له: وما خشوع النفاق؟ قال: أن ترى الجسد خاشعًا والقلب ليس بخاشع.

وذكر ابن القيم رحمه الله: أن للخشوع الصادق ثلاث درجات هي:

١ـ **التذلل لأمر الله**: بأن يتلقاه العبد بذلة الانقياد والقبول والامتثال مع إظهار الأفتقار إلى الهداية قبل فعله والإعانة عليه حال فعله. ورجاء قبوله بعد فعله، وسؤال الله الثبات عليه حتى الممات.

---

(١) صحيح الجامع. ج:١.

(٢) شرح الأسباب العشر. ص:١١٩.

٢ـ **ترقب آفات النفس** والعمل وتوقع ظهورها، والخوف على العمل من هذه الآفات، من كبر أو عجب أو رياء، أو ضعف في الصدق وقلة في اليقين وتشتت في النية، والحذر من رؤية فضل النفس على الناس بل ينسب الفضل كله لله.

٣ـ **أن يضبط نفسه عن الإدلال على الله بالعمل**، أو الظن بأن لها على الله حقًا، مع حرصه على ألا يرى الخلق أحواله مع الخالق، لئلا يعجبه اطلاعهم، فيسد ذلك عليه قلبه ونيته وحاله(١).

«والخشوع أثناء الصلاة لا ينفك عن خشوع القلب خارجها، أما أن يكون المرء غافلاً طوال الأوقات ويريد أن يكون خاشعًا في الصلوات فهيهات هيهات»(٢).

ومما يعين على الخشوع في الصلاة أمور منها:

١ـ **العناية بالوضوء وإسباغه**، واستشعار التعبد فيه، وإحضار القلب معه، وطلب الثواب في تساقط قطرات الماء من الأعضاء؛ لأن الذنوب تتساقط معها.

٢ـ **التبكير إلى المسجد**، والتنفل قبل الفريضة، وقراءة القرآن وذكر الله واستغفاره، لتهدأ النفس وتنقطع عن مشاغل الدنيا، وتقبل على الصلاة بعد الجلوس في المسجد، بخلاف المتأخر الذي جاء مباشرة من الدنيا، فدخل في الصلاة.

---

(١) شرح الأسباب العشر. ص: ١١٢.
(٢) شرح الأسباب العشر. ص: ١٢٢.

٣ـ **استشعار عظمة الله** عند تكبيرة الإحرام «الله أكبر» وتدبر حقيقتها، ومطابقة ما تقول لما تحمل في قلبك، ذلك أن الله أكبر من كل شيء، فلتعظم الله، ولا يشغلك عنه ما هو دونه.

٤ـ **تدبر معاني ما تقول** في صلاتك من آيات تقرأها أو تسبيح أو دعاء وكل ما تقول فيها، ليحصل التأمل والاعتبار وانشغال القلب بتلك المعاني.

٥ـ **صلِّ صلاة المودع** الذي لا يدري هل يصلي صلاة بعدها أم لا، لأن لحظات الوداع غالية وخصوصًا الصلاة إذا استشعرنا فراقها.

٦ـ **حافظ على صلاة الجماعة** فهي واجبة، والدخول مع المصلين في الصلاة استدعاء للرحمة التي تشمل المصلين، فهم القوم الذين لا يشقى بهم جليسهم، لأنهم في أعظم ذكر وخصوصًا صلاة الفجر فإنها صلاة تشهدها الملائكة وحضورها يدل على الصدق مع الله، حيث رفض المصلي فراشه وشهوة نومه وهب ملبيًّا يمشي في الظلم إلى المسجد بخلاف حال المنافق الذي استثقلها. تلك الصلاة العظيمة التي فرط فيها أكثر المسلمين، فإنها والله الرزية كل الرزية، وكيف يرجو ذلك المفرط الذي لا يصليها إلا إذا قام لعمله، كيف يرجو خيرًا ولذة في الصلاة، وهل يريد أن تكون صلاته هذه مطهرة له من الفحشاء والمنكر، وهو بهذه الحال.

٧ـ **بعد الانصراف من الصلاة لابد من المحاسبة**، هل حصل الخشوع فيها أم لا؟ فإذا لم يحصل بسبب الذهول عنها فلابد من لوم النفس والندم على التفريط، ولابد من تعزية القلب على الخسارة التي هي

أعظم من خسارة المال.

٨ـ **حافظ على النوافل** الرواتب وغير الرواتب لأن النوافل تسدد النقص الحاصل في الصلاة لقول النبي ﷺ: «**من صلى صلاة لم يتمها زيد عليها من سبحاته حتى تتم**» رواه الطبراني[1].

قال ابن الجوزي رحمه الله: (ينبغي للمصلي أن يُحضر قلبه عند كل شيء من الصلاة، فإذا سمع نداء المؤذن فليمثل النداء للقيامة، ويشمر للإجابة، وأن ينظر ماذا يجيب، وبأي بدن يحضر، فليذكر عورات باطنه وفضائح سره التي لا يطلع عليها إلا الخالق، ويكفرها الندم والخوف والحياء، وإذا استقبل القبلة بوجهه فصرفُ قلبه إلى الله تعالى أولى من ذلك.

وإذا كبّرت أيها المصلي فلا يكذّبنَّ قلبك لسانك، لأنه لو كان في قلبك شيء أكبر من الله تعالى فقد كذبت، فاحذر أن يكون الهوى عندك أكبر بدليل إيثارك موافقته على طاعة الله تعالى فإذا استعذت فاعلم أن الاستعاذة هي ملجأ إلى الله سبحانه، فإذا لم تلجأ بقلبك كان كلامك لغواً، وأحضر التفهم بقلبك عند قولك: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾، واستحضر لطفه عند قولك: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾، وعظمته عند قولك: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾، واستشعر في ركوعك التواضع، وفي سجود الذل، لأنك وضعت النفس موضعها، ورددت الفرع إلى أصله بالسجود على التراب الذي خلقت منه، واعلم أن أداء

(١) صحيح الجامع. ج:٦،٥. ص:٣١٤.

الصلاة بهذه الشروط سبب لجلاء القلب من الصدأ، وحصول الأنوار فيه التي بها تتلمح عظمة المعبود، وتطلع على أسراره، وما يعقلها إلا العالمون، فأما من هو قائم بصورة الصلاة دون معانيها، فإنه لا يطلع على شيء من ذلك، بل ينكر وجوده(١).

الحادي عشر: إذا صح الإيمان عظَّم العبد ربه وتعامل معه معاملة الصادق الهيّاب الوجل الذي يعظم أمره ونهيه، ويشهد منته عليه وأنه بالله لا بنفسه. قال الله تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾(٢) فهو العظيم سبحانه الذي لا أعظم منه، الكبير الذي لا أكبر منه، العليم الذي يعلم السر والخفيات، السميع الذي وسع سمعه الأصوات، البصير الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السموات.

قال ابن القيم رحمه الله: (يدبر أمر الممالك ويأمر وينهى ويخلق ويرزق ويميت ويحيى ويقضي وينفذ ويعزل ويذل ويقلب الليل والنهار ويداول الأيام بين الناس.

والرسل من الملائكة عليهم الصلاة والسلام بين صاعدٍ إليه بالأمر ونازلٍ من عنده، وأوامره على تعاقب الليل والنهار نافذة بإرادته ومشيئته، يسمع ضجيج الأصوات باختلاف اللغات على تفنن الحاجات، فلا يشغله سمع عن سمع، ولا يغلطه كثرة المسائل ولا يتبرم بإلحاح الملحين ذوي

---

(١) شرح الأسباب العشر. عبدالعزيز مصطفى. ص: ١٢٤ باختصار.

(٢) سورة النحل، آية: ٥٣.

الحاجات، وأحاط بصره بجميع المرئيات فيرى دبيب النملة السوداء على الصخرة الصمّاء في الليلة الظلماء، فالغيب عنده شهادة، والسر عنده علانية، يعلم السر وأخفى، قال الله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾﴾[1] يغفر ذنبًا ويفرج همًّا، ويكشف كربًا، ويجبر كسيرًا، ويغيث لهفان، ويفك عانياً، ويشبع جائعًا، ويكسو عاريًا، ويشفي مريضًا، ويعافي مبتلى، ويقبل تائبًا، ويجزي محسنًا، وينصر مظلومًا، ويقصم جبارًا، ويقيل عثرة، ويستر عورة، ويؤمن روعة، ويرفع أقوامًا ويضع آخرين، لا ينام سبحانه، ولا ينبغي له أن ينام، حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه، يمينه ملأى لا تغيضها نفقة، سحاء الليل والنهار، قلوب العباد ونواصيهم بيده، وأزمة الأمور معقودة بقضائه وقدره، يقبض سمواته كلها بيمينه الكريمة، والأرض بيده الأخرى، ثم يهزهنَّ ثم يقول أنا الملك أين الجبارون أين المتكبرون.

قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[2].

فلا يتعاظمه ذنب أن يغفره، ولا حاجة يُسألها أن يعطيها، لو أن أهل سماواته وأهل أرضه وإنسهم وجنهم وحيهم وميتهم ورطبهم ويابسهم قاموا في صعيد واحد فسألوه فأعطى كلاً منهم مسألته،

---

(١) سورة الرحمن، آية: ٢٩.

(٢) سورة الزمر، آية: ٦٧.

ما نقص ذلك مما عنده مثقال ذرة، ولو أن أشجار الأرض كلها أقلام والبحر كله ووراءه سبعة أبحر تمده فكتب بتلك الأقلام وذلك المداد لفنيت الأقلام ونفد المداد ولم تنفد كلمات الخالق تبارك وتعالى»[١].

فما أعظم الله وأجل سلطانه! وما أحوج القلوب لتتذكر عظمة الله وهيمنته وآلاءه في الكون والنفوس، وما أفقر القلب لاستشعار أسماء الرب جل جلاله، وتأمل نعوته وصفاته، ليتعبد لربه بمقتضاها، فإذا أشرقت على القلب أنوار أسمائه وصفاته اضمحل عنها كل بلاء من شهوة أو شبهة أو بلية، وتعلق بالله محبة وخوفًا ورجاءً، وإذا ذكر العبد ربه بقلبه ولسانه معظمًا إياه هانت عليه هذه الدنيا بزخارفها وصغرت عنده مشاكلها وهمومها، وانقطع رجاؤه من المخلوقين، وأقبل على ربه إقبال الفرحين بالعبادة سعيدًا ملتذًا بها، تغمر قلبه الفرحة قبل العبادة وأثناءها وبعدها، وإذا عظم العبد ربه وهبه الشكر عند النعمة، ووهبه الرضا والصبر والاحتساب عند الفقر والمرض والمصيبة، فإن أعطي شكر، وإذا ابتلي صبر، وإذا أذنب استغفر.

وعلى حسب تعظيم العبد لربه، وإشراق الإيمان في قلبه تخرج أعماله وأقواله ونياته، والموفق هو من رفع الله من لسانه وقلبه رؤية عمله ونفسه، بل هو مستحي من ربه بسبب أعماله، وناظرٌ بعين البصيرة إلى فضل الله وإحسانه، وأن كل ما به من نعمة فهي من الله، فكيف يعجب بنفسه؟ قال الشاعر:

---

(١) الوابل الصيب ص: ١٣٤.

إذا كان شكري نعمةَ الله نعمةً عليَّ له في مثلها يجب الشكر
فكيف أقوم الدهر في بعض حقه وإن طالت الأيام واتصل العمر

وينظر من عظم ربه إلى دنياه وهو يتقلب فيها بين الفتن والمخاوف والمغريات، لا يأمن على نفسه حيث الهوى والنفس والشيطان فتنزل بقلبه الضرورة إلى ربه ليثبته ويعينه ويحسن خاتمته ويتوفاه غير مفتون، وناظرٌ بعين البصيرة إلى ما أمامه من شدائد وأهوال، فهو إلى القبر إما روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار ثم إلى يوم العرض الأكبر يوم الحشر والنشور يوم الحسرات يوم تذهل كل مرضعة عما أرضعت يوم التغابن يوم تتبرأ كل نفس مما حولها: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾﴾[1]، ﴿فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾﴾[2].

يوم الأهوال والفجائع يوم الطامة والصاخة والقارعة والزلزلة، يوم يسأل العليم الخبير جل جلاله الصادقين عن صدقهم فكيف بالغافلين المضيعين؟! يوم يأتي الرب عز وجل لفصل القضاء بين الخلائق، قال تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَـٰظِمِينَ مَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾﴾[3].

---

(١) سورة آل عمران، آية: ٣٠.
(٢) سورة الطارق، آية: ١٠.
(٣) سورة غافر، الآيتان: ١٨ - ١٩

وإذا صح الإيمان عظّم العبد ربه بتحقيق التوحيد، وذلك بتنقيته من الشرك الأكبر والأصغر ومن البدع والمعاصي الكبيرة والصغيرة، وهذايوجب على العبد أن يحترز من كل ما يبطل عمله أو ينقصه بأن يتبع ولا يبتدع، ويمتثل ولا يخالف، ويسلم وينقاد، وألا يقع في قلبه شيءٌ من حرج أو ريبة مما أمر الله به أو نهى عنه. قال تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾[1].

الثاني عشر: إذا صح الإيمان تعلق القلب بالجنة يسرح النظر فيها بين أملاكها وقصورها وحورها وولدانها وأنهارها وفواكهها، وما أعظم ما فيها وهو رؤية الرب جل جلاله وتقدست أسماؤه، فكل شيء تراه في هذه الدنيا ويعجبك بعظمته وجماله وتمامه، ويسترعي نظرك ويشد انتباهك، فاعلم أن في الجنة ما هو أعظم منه وأجلّ.

قال ابن القيم رحمه الله في حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح: (وإنما يظهر الغبن الفاحش في هذا البيع يوم القيامة، إذا حشر المتقون إلى الرحمن وفدًا، وسيق المجرمون إلى جنهم وردًا، ونادى المنادي على رؤوس الأشهاد، ليعلم أهل الموقف من أولى بالكرم من بين العباد، فلو توهم المتخلف عن هذه الرفقة ما أعد الله لهم من الإكرام، وادخر لهم من الفضل والإنعام، وما أخفى لهم من قرة أعين لم يقع على مثلها بصر، ولا سمعته أذن ولا خطر على قلب بشر، لعلم أي

---

(١) سورة النساء، آية: ٦٥.

بضاعة أضاع، وأنه لا خير له في حياته، وهو معدود من سقط المتاع، وعلم أن القوم توسطوا ملكًا كبيرًا لا تعتريه الآفات، ولا يحلقه الزوال، وفازوا بالنعيم المقيم، في جوار الكبير المتعال، فهم في روضات الجنات يتقلبون وعلى أسِرَّتِها يتنعمون، وبأنواع الثمار يتفكهون، يطوف عليهم ولدان مخلدون، بأكواب وأباريق وكأس من معين لا يصدعون عنها ولا ينزفون، وفاكهة ممايتخيرون، ولحم طير مما يشتهون، وحور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون، جزاء بما كانوا يعلمون، يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب، وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، وأنتم فيها خالدون.

فواعجبًا لها كيف نام طالبها! وكيف لم يسمح بمهرها خاطبها! وكيف طاب العيش في هذه الدار بعد سماع أخبارها! وكيف قر للمشتاق القرار دون معانقة أبكارها! وكيف قرت دونها أعين المشتاقين! وكيف صبرت عنها أنفس الموقنين! وكيف صدفت عنها قلوب أكثر العالمين! وبأي شيء تعوضت عنها نفوس المعرضين؟

فيا عجبًا من سفيه في صورة حليم، آثر الحظ الفاني الخسيس على الحظ الباقي النفيس، وباع جنة عرضها السموات والأرض بسجن ضيق بين أرباب العاهات، والبليات، ومساكن طيبة في جنات عدن تجري من تحتها الأنهار بأعطان ضيقة آخرها البوار والخراب، وأبكارًا عربًا أترابًا كأنهن الياقوت والمرجان بقَذِرات دِنِسات سيئات الأخلاق مسافحات أو متخذات أخدان، ولذة النظر إلى وجه العزيز الرحيم

بالتمتع برؤية الوجه القبيح الذميم، وسماع الخطاب من الرحمن بسماع المعازف من الغناء والألحان، والجلوس على منابر اللؤلؤ والياقوت والزبرجد يوم المزيد بالجلوس في مجالس الفسوق مع كل شيطان مريد.

ونادى المنادي يا أهل الجنة إن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا وتحيوا فلا تموتوا، وتقيموا فلا تظعنوا، وتشبوا فلا تهرموا)[1].

فهل يتذكر المؤمن إذا تطلعت نفسه إلى النساء والصور، هل يتذكر حور الجنة التي لو اطلعت الواحدة منهن على الأرض لملأت ما بين السماء والأرض ريحًا، ولنصيفها على رأسها خير من الدنيا وما فيها، وهل نتذكر إذا رأينا قصور الدنيا وفخامتها، هل نتذكر بأن أدنى أهل الجنة منزلة، من يعطى مثل الدنيا وعشرة أمثالها.

قال ابن القيم رحمه الله في الميمية:

وإن ضاقت الدنيا عليك بأسرها ... ولم يك فيها منزل لك يعلم
فحي على جنات عدن فإنها ... منازلك الأولى وفيها المخيم
وحي على روضاتها وخيامها ... وحي على عيش بها ليس يسأم
وحي على يوم المزيد فإنه ... لموعد أهل الحب حين يكرموا
وحي على وادٍ هنالك أفيح ... منابر من نور لمن هو مكرم
ومن حولها كثبان مسك مقاعدٌ ... لمن دونهم هذا العطاء المفخم
يرون بها الرحمن جل جلاله ... كرؤية بدر التم لا يتوهم

(١) حادي الأرواح، ص١١.

أو الشمس صحواً ليس من دون أفقها سحابٌ ولا غيم هناك يغيم
فبينا هموا في عيشهم وسرورهم وأرزاقهم تجري عليهم وتقسم
إذا هم بربه من فوقهم قائل لهم سلامٌ عليكم طبتم ونعمتموا
فبالله ما عذر امرئٍ هو مؤمنٌ بهذا ولا يسعى له ويقدم
فقدم فدتك النفس نفسك إنها هي الثمن المبذول حين تسلم
فما ظفرت بالوصل نفسٌ مهينةٌ ولا فاز عبد بالبطالة ينعم
فدعها وسل الطرف عنها بجنةٍ من العلم في روضاتها الحق يبسم
ولله برد العيش بين خيامها وروضاتها والثغر في الروض يبسم
ولله أفراح المحبين عندما يخاطبهم من فوقهم ويسلم
ولله كم من خيرة إن تبسمت أضاء لها نور من الفجر أعظم
فيالذة الأبصار إن هي أقبلت ويالذة الأسماع حين تكلم
ويا خجلة الغصن الرطيب إذا انثنت ويا خجلة الفجرين حين تبسم
فيا خاطب الحسناء إن كنت راغبًا فهذا زمان المهر فهو المقدم

الثالث عشر: إذا صح إيمان المؤمن تدبر كتاب ربه وأنزله المنزلة العظيمة التي تليق به، واستشعر عظمته وتدبره واقفًا عند عجائبه وحدوده وتذوق حلاوته، وتعبد لله بترديده قراءة وحفظًا ومعرفة لما تدل عليه آياته العظيمة، ومراميه العجيبة، قال الحسن بن علي رضي الله عنه: (إن من كان قبلكم رأوا القرآن رسائل من ربهم، فكانوا يتدبرونها بالليل ويتفقدونها في النهار).

«إنه لشيء عظيم وكبير أي يخصنا الإله الكبير المتعال مالك الملك

سبحانه بخطابه وكلامه، ويخصنا بشرف التحدث إليه ومناجاته. قال ابن الصلاح: قراءة القرآن كرامة أكرم الله بها البشر، وقال ابن القيم رحمه الله: فليس شيء أنفع للعبد في معاشه ومعاده وأقرب إلى نجاته من تدبر القرآن، وجمع الفكر على معاني آياته، فإنها تطلع العبد على معالم الشر والخير بحذافيرها، ومآل أهلهما، وتتل في يده مفاتيح كنوز السعادة، والعلوم النافعة، وتثبت قواعد الإيمان في قلبه، وتريه صورة الدنيا والآخرة والجنة والنار في قلبه، وتحضره بين الأمم وتريه أيام الله فيهم وتبصّره مواقع العبر، وترشده عدل الله وفضله وصراطه الموصل إليه وما لسالكيه بعد الوصول والقدوم عليه، وتعرفه قواطع الطريق وآفاتها والنفس وصفاتها ومفسدات الأعمال ومصححاتها»[(١)].

«إن تدبر القرآن يعالج أمراض القلوب وينظفها من أوضارها، ويجيب على الشبهات ويرد النزغات ويطفىء نيران الشهوات، قال الله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾[(٢)]. قال القرطبي رحمه الله: دلت هذه الآية: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾[(٣)] دلت على وجوب التدبر في القرآن ليعرف معناه، إن بركة هذا القرآن مودعة فيه كالكنوز، لا يستخرجها إلا المتدبرون، ولايعرف حلاوتها إلا من عظموا كلام ربهم وأنزلوه في قلوبهم مخلصين خاشعين عاملين متذكرين لقيمته ومنزلته العظيمة.

---

(١) شرح الأسباب العشر، عبدالعزيز مصطفى.
(٢) سورة يونس، آية: ٥٧.
(٣) سورة محمد، آية: ٢٤.

قال تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾ ﴾[١] وقد قام النبي ﷺ بآية يرددها ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾[٢].

قال بشر بن السرى: إنما الآية مثل التمرة كلما مضغتها استخرجت حلاوتها، ومن أحسن صحبة القرآن فإن القرآن يصحبه حتى يقوده إلى الجنة في درجاتها العالية، قال رسول الله ﷺ: «**يقال لصاحب القرآن اقرأ وارتق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا، فإن منزلتك عند آخر آية تقرأها**» رواه أبوداود وأحمد والترمذي وصححه الألباني.

وبقدر ما يعظم في قلبك كلام الله وأوامره ونواهيه، بقدر ما تنال الكرامة عند الله. قال ابن مسعود رضي الله عنه: «ينبغي لحامل القرآن أن يعرف بليله إذا الناس نائمون، وبنهاره إذا الناس مفطرون، وبحزنه إذا الناس يفرحون، وبكائه إذا الناس يضحكون، وبصمته إذا الناس يختالون»[٣].

واستمع يا صاحب الإيمان إلى توجيه ابن القيم العالم الرباني إذا أردت الانتفاع بالقرآن حيث يقول: (إذا أردت الانتفاع بالقرآن فاجمع قلبك عند تلاوته وسماعه، وألق سمعك، واحضر حضور من يخاطبه به من تكلم به، فإنه خطاب منه لك على لسان رسوله ﷺ. قال تعالى: ﴿ إِنَّ

---

(١) سورة صَ، آية: ٢٩.
(٢) سورة المائدة، آية: ١١٨.
(٣) شرح الأسباب العشر ص ٢٢.

فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾[١]، فإذا حصل المؤثر وهو القرآن والمحل القابل وهو القلب الحي، ووجد الشرط وهو الإصغاء، وانتفى المانع وهو اشتغال القلب وذهوله عن معنى الخطاب، حصل الأثر وهو الانتفاع والتذكير.

قال ﷺ: «**إن الله يرفع بهذا القرآن أقوامًا ويضع به آخرين**» رواه مسلم.

وقال ﷺ: «**خيركم من تعلم القرآن وعلمه**»رواه البخاري.

وعليك أن تتأدب أيها المؤمن بآداب القرآن وتتزين بها، «فمنها الإخلاص في القراءة واستحضار مناجاة الله، وتنظيف الفم بالسواك، والقراءة على طهارة، وأن يكون مكان القراءة نظيفًا، والجلوس مستقبل القبلة جلوسًا بخشوع وأدب وسكينة ووقار واستعاذة بالله من الشيطان الرجيم، والمحافظة على قراءة بسم الله الرحمن الرحيم، واستجماع الهمة للخشوع والتدبر واستشعار خوف الله والخشية منه، فعن جابر رضي الله عنه مرفوعًا أن النبي ﷺ قال: «**إن من أحسن الناس صوتًا بالقرآن الذي إذا سمعتموه يقرأ حسبتموه يخشى الله**» رواه ابن ماجه وصححه الألباني.

وأجمع العلماء على استحباب ترتيل القرآن لقوله تعالى: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ﴾[٢]. قال ﷺ: «**إن لله عز وجل أهلين من الناس**» قيل: من هم يا رسول الله: قال: «**أهل القرآن هم أهل الله وخاصته**»رواه ابن ماجه وأحمد، وصححه الألباني.

---

(١) سورة قٓ، اية: ٣٧.

(٢) سورة المزمل، آية: ٤.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**أحسن الناس قراءة الذي إذا قرأ رأيت أنه يخشى الله**» رواه البيهقي والخطيب البغدادي. صحيح الجامع»[١].

الـرابع عشر: إذا صح الإيمان رضي المؤمن بقضاء الله وقدره وعلم أن مـا أصابـه لـم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه. قال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾[٢]. وقال عز وجل: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾[٣]. قال علقمة: (هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم).

فإذا حصل اليقين بهذا علم العبد أن اختيار الله له أنفع له من اختياره لنفسه، فاستقبل حياته بالرضا والاطمئنان، واحتسب صابرًا على بلوائه، شاكرًا على سرائه، يعلم بيقين قوله الرسول ﷺ: «**عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له**» رواه مسلم.

فيظل المؤمن معلق القلب بربه مع كل حدث في هذا الكون عالمًا بيقين أنه ما من هباءة ولا ذرة ولا حركة ولا سكون إلا وهي كائنة بقضاء الله وقدره، فحينئذٍ تنزل على قلبه السكينة في رزقه وأجله وفي كل ما يواجهه من خطوب، فيتحرك في هذه الدنيا متوكلاً على ربه قائمًا بأمره مجاهدًا في

---

(١) شرح الأسباب العشر ص٢٥ ومابعدها.
(٢) سورة القمر، آية: ٤٩.
(٣) سورة التغابن، آية: ١١.

سبيله، لا تأخذه في الله لومة لائم، يعلم أن الخلق لا يملكون له ضرًا ولا نفعًا، ولا حياة ولا موتًا ولا رزقًا ولا فقرًا، ويعلم أن الجهاد في سبيل الله هو ذروة سنام الإسلام، وأنه لا شيء يعدله، وأن الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون، ويعلم كذلك أن الجهاد لايقدم أجله، وأن القعود والجبن والدعة والهون والركون إلى الدنيا لايزيد في عمره.

قال علي رضي الله عنه:

أي يومـيَّ مـن المـوت أفـر يـوم لا قـدر أم يـوم قـدر

يـوم لا قـدر لا أرهبـه ومـن المقـدور لاينجـو الحـذر

وقال عمر رضي الله عنه: أصبحت ومالي سرور إلا في مواقع القضاء والقدر. قال الله تعالى: ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوۡلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٥١ ﴾(١).

ولكننا اليوم لضعف إيماننا وقلة يقيننا ركنًا إلى الأسباب فأصابنا الوهن وتعلقنا بالدنيا، وخفنا من المخلوقين أكثر من خوف الله، ونظرنا إلى أيدي العبيد نطلب منهم الرزق، ونسينا أو تناسينا أن الله هو الرزاق ذو القوة المتين، قال الله تعالى عن الخليل عليه السلام: ﴿ فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ ﴾(٢).

وأصبحت عقيدة القضاء والقدر قضية ندرسها ونُدرِّسُها نظريًا، فلم نتعامل معها واقعًا عمليًا في معاملاتنا، فمنا من يغش ويرابي ويكذب

---

(١) سورة التوبة، آية: ٥١.
(٢) سورة العنكبوت، آية: ١٧.

للحصول على المال، فيستعجل الرزق من طريق حرام، وإلا فإن ما قدّر الله من الرزق للمرابي وغير المرابي سيأتيه لا محالة، فلا مانع لما أعطى الله، ولا مُعطي لما منع، ومنّا من يجبن عن واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مُؤْثِرًا السلامة، في مقابل سخط الله يريد سلامة دنياه والله عز وجل بيده وحده مقاليد الأمور كلها، ولتعلقنا بالأسباب أصبحت الملامة عليها شيئًا دارجًا عند غالبنا المتعلم وغير المتعلم، ولم نعِ قول الرسول ﷺ: «**المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كلٍ خير احرص على ما ينفعك ولا تعجزن، وإن أصابك شيءٌ فلا تقل: لو أني فعلت كذا لكان كذا وكذا، ولكن قل: قدّر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان**» رواه مسلم.

ومنّا من يركن للطبيب ويعلق قلبه بالعلاج، ويعتقد أنه لو فاته العلاج أو لم يجد الطبيب لأصابه المرض أو الموت، وهذا من الجهل وضعف الإيمان، لأن الشافي هو الله، فهو مسبب الأسباب والمسببات، قال تعالى عن إبراهيم: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾﴾[1]. قال ابن عمر رضي الله عنهما: والذي نفس ابن عمر بيده لو أنفق أحدهم مثل أحد ذهباً ثم أنفقه في سبيل الله ما قبله الله منه، حتى يؤمن بالقدر، ثم استدل بقول النبي ﷺ: «**الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره شره**» رواه مسلم.

والأخذ بالأسباب واجب شرعاً، لأن حكمة الله اقتضت أن جعل الأسباب مربوطة بمسبباتها، ولو شاء الله لوقع المقدور بدون سبب،

---

(١) سورة الشعراء، آية: ٨٠.

وليس للعبد أن يركن إلى السبب بل يعتقد أنه مجرد سبب هيأه الله، والأمر كله من عند الله أولاً وآخراً، ومن فوائد اليقين في القضاء والقدر أن العبد لا ينسب الفضل لنفسه، بل يُرجع كل فضل إلى ربه بأنه هو الذي شاءه وقدره، وكذلك إذا أصابته المصيبة فلا يتقطع قلبه حسرات، ويفزع إلى المخلوقين، بل يطمئن لأنه يعلم أن هذا بتقدير الله الذي لا يتقدم ولا يتأخر ولا يستطيع أحدُ كائناً من كان أن يدفع ما أصابه، ولا أن يجلب له ما فاته.

الخامس عشر: إذا صح الإيمان انتصر المؤمنون على أعدائهم لأن الإيمان الصحيح يزكي النفوس ويطهر القلوب، فتصلح الحال ويكتب الله النصر والتمكين للمؤمنين، لأن أسباب النصر داخلية في القلوب والنفوس، قال تعالى: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ ۝٥١ ﴾(١). مع الأخذ بالأسباب لقوله تعالى: ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾(٢)

فانظر إلى ما فعل الله بأهل الممالك العظيمة من القياصرة والأكاسرة الذين قصم الله ظهورهم وأزال ممالكهم، وحطم عروشهم على أيدي أهل الإيمان الجياع الحفاة القلة لما صدقوا وأصلحوا ما بينهم وبين ربهم وتخلصوا من حظوظ أنفسهم، ولما نزل اليقين في قلوبهم بأن الله ناصرٌ دينه، ومعلٍ كلمته ومعزٌ أولياءه، فإنه سبحانه لا يضيعهم ولا يخزيهم

---

(١) سورة غافر، آية: ٥١.
(٢) سورة الأنفال، آية: ٦٠.

أبداً، وإن الدائرة على أهل الكفر والمحادة لله ورسله والمؤمنين. قال تعالى: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾﴾[١].

وإذا حضر اليقين وقام بقلب العبد سوق الجنة اشتدت الرغبة في لقاء الله فيفرح القوم بالجهاد يتركون الزوجات والأولاد والممتلكات ويريدون قطع رؤوسهم وسفك دمائهم، لينتقلوا إلى مجاورة الرحمن في الجنان قال تعالى ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾[٢].

قال ﷺ: «**من طلب الشهاد بصدق أعطيها ولو لم تصبه**» رواه مسلم. وقال ﷺ: «**ما يجد الشهيد من مس القتل إلا كما يجد أحدكم من مس القرصة**» رواه الترمذي. وقال حسن صحيح. وقال ﷺ: «**وما اغبرت قدم عبد في سبيل الله فتمسه النار**» رواه البخاري، وقال ﷺ: «**رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه، وإن مات فيه أجري عليه عمله الذي كان يعمله، وأجري عليه رزقه وأمن الفتان**» رواه مسلم. والمقصود بالفتان قيل: فتنة القبر، وقيل: الشيطان.

والمقصود أن القلوب إذا قصدت وتوجهت إلى ربها أحبت لقاءه وتشوقت إلى موعوده لقول النبي ﷺ: «**من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه**» فلماذا يريد المؤمن التشبث بهذه الأرض والركون إلى زينتها وشهواتها التي لوثتها الأقذار والفتن والغصص والبليات؟ ولماذا يريد المؤمن الدنيا

---

(١) سورة آل عمران، آية: ١٢٦.
(٢) سورة آل عمران، آية: ١٦٩.

وأجله الموعود مضروب؟ والأنفاس معدودة والفراق حاصل! فلماذا لا يكون الفراق شهادة في سبيل الله؟

يا نفس إن لم تقتلي تموتي هذا حمام الموت قد صليت

فيريد المؤمن أن يبيع نفسه على ربه، فنعم البيع، وهنيئا لتلك الصفقة التي ثمنها الجنة، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ۚ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ ۚ﴾[1].

واسمع إلى رسولك الشهيد ﷺ حيث يتمنى الشهادة ويقول: «**والذي نفس محمد بيده لولا أن يشق على المسلمين ما قعدت خلف سرية تغزو في سبيل الله أبداً، ولكن لا أجد سعة فأحملهم ولا يجدون سعة ويشق عليهم أن يتخلفوا عني، والذي نفس محمد بيده لوددت أن أغزو في سبيل الله فأقتل ثم أغزو فأقتل ثم أغزو فأقتل**» رواه مسلم.

وروى البخاري أن رجلا قال: يا رسول الله: دلني على عمل يعدل الجهاد، قال: «**لا أجد**». ثم قال: «**هل تستطيع إذا خرج المجاهد أن تدخل مسجدك فتقوم ولا تفتر وتصوم ولاتفطر**» قال: ومن يستطيع ذلك. رواه البخاري.

وعن أنس أن أم الربيع بنت البراء وهي أم حارثة بنت سراقة أتت النبي ﷺ فقالت يا رسول الله: ألا تحدثني عن حارثة ـ وكان قتل يوم بدر ـ فإن كان في الجنة صبرت، وإن كان غير ذلك اجتهدت عليه في البكاء، فقال:

---

(١) سورة التوبة، آية: ١١١.

«يا أم حارثة إنها جنان في الجنة وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى» رواه البخاري.

وفضل الله عظيم حيث يضاعف الأجور لمن أنفق في سبيل الله ولو لم يغز، فلقد جاء رجل إلى النبي ﷺ بناقة مخطومة، فقال هذه في سبيل الله، فقال رسول الله ﷺ: **«لك بها يوم القيامة سبعمائة ناقة كلها مخطومة»** رواه مسلم. وقال ﷺ: **«من أنفق نفقة في سبيل الله كتب له سبعمائة ضعف»** رواه الترمذي، وقال حديث حسن.

وقال ﷺ: **«من لم يغزو أو يجهز أو يخلف غازياً في أهله بخير أصابه الله بقارعة قبل يوم القيامة»** رواه أبو داود.

واليوم تداعت الأمم على المسلمين من مشارق الأرض ومغاربها، فاستغلهم الأعداء وساموهم سوء العذاب فهتكوا حرماتهم ونهبوا ديارهم، وأبادوا أطفالهم وشيوخهم فضلاً عن شبابهم، فليس الخلاص من هذا الذل والهوان بالتمني والتحلي ولا بالكثرة والأقوال والتماس رحمة الكافرين وقراراتهم، فلا مخرج إلا بالجهاد ورفع راياته خفاقة يحملها أهل الصدق والإيمان بعد التربية على الإيمان وإعداد العدة، وبعد أن نصلح ما بيننا وبين الله بالرجوع إليه.

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه موصياً أحد قادته: (إن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم، وإن لم ننتصر عليهم بفضلنا لم ننتصر عليهم بقوتنا).

فالحذر الحذر من الذنوب، والصدق الصدق في جهاد النفس وربطها

بالله لتخلص وتستقيم حتى تكون أهلا للانتصار والغلبة، ثم إذا تمكنت وسادت حكّمت شرع الله بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾(١).

السادس عشر: إذا صح الإيمان اهتم العبد بوقته واشتدت عليه لحظاته في حسابه، وأصبح ضنيناً بالأنفاس لا ينفقها إلا فيما يقربه إلى ربه، لأن الأيام خزائن فلنودعها ما نشاء من خير أو شر أو عمل فاضل أو مفضول، والنفس الذي يخرج لا يرجع وكل يوم يبعدنا عن دنيانا ويقربنا إلى الآخرة قال تعالى للكافرين يوبخهم: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟﴾(٢).

وقال ﷺ: «**لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن عمره فيما أفناه، وعن عمله فيم عمل فيه، وعن ماله من أين اكتسبه؟ وفيم أنفقه؟ وعن جسمه فيم أبلاه؟**» رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

إن الخير يدل على الخير، فالحسنة تجر مثيلاتها، ومن فتح على نفسه باب خير واحد بصدق تسابقت إليه الخيرات من كل جانب، وتدفقت إليه المكرمات وضاق وقته بها، واحتاج إليه الناس، ولا يظن الظان أن حاجة الناس أو ضيق الوقت خاص بالعالم المفتي أو الداعية المشهور، أو صاحب المال صاحب الإحسان والصدقات كلا، فهؤلاء وأمثالهم أوقاتهم

(١) سورة الحج، آية: ٤١.
(٢) سورة فاطر، آية: ٣٧.

ضيقة نعم، ولكن من مضى في أيامه ساعياً إلى الخير يريد العطاء وبذل الوقت والراحة وإيثار محاب الله على النفس، تدفقت إليه السبل فكم هي حاجة المسلمين إلى كل شيء، وكم يوجد من الثغرات التي لم تسد، وكم يوجد في المسلمين من لا يحسن قراءة الفاتحة، وكم يوجد من غير المسلمين والمسلمين الجدد من هم بحاجة إلى الحرف الواحد من العربية، وكم هناك من صنوف الخيرات بحاجة إلى نشر وتوزيع لتصل إلى الناس، إلى غير ذلك مما لا ينتهي لو وعاه المسلم اليقظ الحريص الذي يريد أن يمشي في سبيل الله.

هذا في بذل الوقت في النفع المتعدي للآخرين، وكذلك الحال في النفع القاصر على النفس فهل من عمر أوقاته لله في قراءة كتاب ربه، والتسبيح والتحميد والتهليل والتكبير، فهل من وفق لهذا وغيره من الشكر والتذكر والاعتبار والصبر والاحتساب، هل هو مثل من غفل ولم يُقم لمثل تلك الأمور اعتباراً في نفسه أو حياة لقلبه، فقد شغلته دنياه ومعاشه، وأصغى لهموم هذه الدنيا، واشتغل بالآخرين، وسفل همه للمحرمات، وساقط القول ورديء الحال، فاشتغل بدنياه عن آخرته.

واستمع إلى هذا التقرير من ابن القيم واضعاً النقاط على الحروف في تصريف الأيام لو لم يقضها المسلم في طاعة الله، ولو لم يبذل نفسه لله حيث يقول: (ومن المعلوم أن الخلق كلهم يموتون، وغاية المؤمن أن يستشهد في الله، وتلك أشرف الميتات وأسهلها، فإنه لا يجد الشهيد من الألم إلا مثل ألم القرصة، فليس في قتل الشهيد مصيبة زائدة على ما هو

معتاد لبني آدم، بل موت الشهيد من أيسر الميتات وأفضلها وأعلاها، ولكن الفار يظن أنه بفراره يطول عمره فيتمتع بالعيش وقد أكذب الله سبحانه هذا الظن حيث يقول: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾﴾[١] وقال ﷺ: «**كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها**».

وإذا كان هذا في مصيبة النفس فالأمر هكذا في مصيبة المال والعرض والبدن، فإن من بخل بماله أن ينفقه في سبيل الله وإعلاء كلمته سلبه الله إياه أو قيض له إنفاقه فيما لا ينفعه دنيا ولا أخرى، وإن حبسه وادخره منعه التمتع به ونقله إلى غيره فيكون له مهنؤه، وعلى مخلفه وزره، وكذلك من رفّه بدنه وعرضه وآثر راحته على التعب لله وفي سبيله أتعبه الله سبحانه وتعالى أضعاف ذلك في غير سبيله ومرضاته، وهذا أمر يعرفه الناس بالتجارب، قال أبو حازم: لَمَا يلقى الذي لا يتقي الله من معالجة الخلق أعظم مما يلقى الذي يتقي الله من معالجة التقوى.

واعتبر ذلك بحال إبليس فإنه امتنع من السجود لآدم فراراً أن يخضع له ويذل وطلب إعزاز نفسه، فصيره الله أذل الأذلين، وجعله خادماً لأهل الفسوق والفجور من ذريته، فلم يرض بالسجود له ورضي أن يخدم هو وبنوه فساق ذريته، وكذلك عباد الأصنام أنِفوا أن يتبعوا رسولاً من البشر وأن يعبدوا إلها واحداً سبحانه، ورضوا أن يعبدوا آلهة من الأحجار[٢].

---

(١) سورة الأحزاب، آية: ١٦.
(٢) حكمة الابتلاء لابن القيم، ص٥١.

هربوا من الرق الذي خلقوا له   وبلوا برق النفس والشيطان

السابع عشر: إذا صح الإيمان استشعر المؤمن أن الله كافيه وناصره وحافظه ومعينه، فإذا استشعر ذلك في قلبه لم يخف من عدوه ولم يأخذ للناس حساباً، فقد حضر عنده اليقين في قوله تعالى: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ ﴾[1] فحينئذ لا يشتغل بعدوه ولا يصبح هو همه، وكيف يحتمي منه ويطلب النصرة من الخلق ضده ويفزع لذلك!؟ وكيف تقض مضجعه عداوة عدوه وشراسته وكثرة عدده وعدته ومكره؟ وهو متصل بالله يعلم أن الله على كل شيء قدير، وأنه سبحانه هو خير الحافظين والناصرين.

والذي يعني المؤمن أولاً وأخيراً هو ارتباطه بالله وإصلاح قلبه وحاله مع ربه مع الأخذ بالأسباب الشرعية التي هو مأمور بها شرعًا، بحيث يتوكل على ربه ويخاف منه ويرجوه، ويعتقد فيما يتوصل إليه من أسباب أنها مجرد أسباب اقتضتها حكمة العليم الخبير، وأن الله هو مسبب الأسباب ومقدر المسببات وأن الأمر كله بيد الله من أوله لآخره.

وقد قيل: إذا كان الله معك فممن تخاف؟ وإذا كان الله عليك فمن ترجو؟ وقيل: من أصلح ما بينه وبين الله أصلح الله ما بينه وبين الناس، ومن خاف الله أخاف الله منه كل شيء، ومن لم يخف الله أخافه الله من كل شي، ومعية الله للمؤمنين المتقين معية خاصة تقتضي الحفظ والنصرة والتأييد.

---

(١) سورة الزمر، آية: ٣٦.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ۝١٢٨ ﴾[1].

وقال تعالى ﴿ قُلۡ مَن يَكۡلَؤُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحۡمَٰنِۗ بَلۡ هُمۡ عَن ذِكۡرِ رَبِّهِم مُّعۡرِضُونَ ۝٤٢ ﴾[2].

وفي وصية ابن عباس التي وصاه بها الرسول ﷺ فقال له: «**ياغلام احفظ الله يحفظك**» رواه الترمذي.

إن هذه المعاني نقرؤها ونكتبها ونحفظها وربما نُعلمها ولكن ماهو نصيبنا العملي منها؟ وما محلها في قلوبنا. إنك تشاهد كثيراً من المسلمين الركع السجود منهم من اشتغل بالخلق عن نفسه، ومنهم من خاف الناس أكثر من خوف الله، وهذه حال شبيهة بحال المنافقين الذين يحسبون كل صيحة عليهم، ومنهم من يريد حفظ دنياه وشهواته ويخاف من زوالها فيهرع إلى قوة تحميه ولو كان الشيطان وأعوانه من الكفرة والفجرة. قال تعالى: ﴿ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ يَقُولُونَ نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَ بِٱلۡفَتۡحِ أَوۡ أَمۡرٖ مِّنۡ عِندِهِۦ فَيُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ نَٰدِمِينَ ۝٥٢ ﴾[3].

ومن الناس من يشتكي إلى الناس ولا يشتكي إلى ربه ولا يفزع إليه ولا ينزل حوائجه فيه، وإذا حصل الأذى عليه والقهر والمصيبه لا يرجع إلى نفسه ويطهرها من الذنوب التي سببت له المصائب، أما صحيح الإيمان فإن الله

---

(١) سورة النحل، آية: ١٢٨.

(٢) سورة الأنبياء، آية: ٤٢.

(٣) سورة المائدة، آية: ٥٢.

منحه السكينة في قلبه والرضا واليقين، فإقبال الدنيا عليه وإدبارها عنده سواء بل هو يخاف من إقبال الدنيا أن تفتنه وتصده عن ربه وتلهيه فيغفل، وقد حذرنا الله منها. وصحيح الإيمان هو الذي وهبه الله قوة القلب والثبات والصبر والتجلد، لأنه موصول القلب بربه فلا يقلقه الكيد ولا تطيش به الأحداث ولا تذهب بصوابه شماتة الشامتين وإرجاف المرجفين.

فكم نحن بحاجه إلى القدوات من المؤمنين الصادقين الذين يعيشون لآخرتهم ويبيعون حياتهم وأموالهم وأوقاتهم على ربهم.

قال ابن القيم رحمه الله: ـ معلقاً على هذه الآية ـ ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾﴾[1] قال: فجمع سبحانه بين النصر والرزق فإن العبد مضطر إلى من يدفع عنه عدوه بنصره ويجلب له منافعه برزقه، فلابد له من ناصر ورازق والله وحده هو الذي ينصر ويرزق.

ومن كمال فطنة العبد أن يعلم أنه إذا مسه الله بسوء لم يرفعه عنه غيره، وإذا ناله بنعمة لم يرزقه إياها سواه، ويذكر أن الله أوحى إلى بعض أنبيائه: أدرك لي لطيف الفطنة وخفي اللطف فإني أحب ذلك. قال: ياربي وما لطيف الفطنة؟ قال: إن وقعت عليك ذبابة فاعلم أني أنا الذي أوقعتها فاسألني أن أرفعها، قال: وما خفي اللطف، قال: إذا أتتك حية فاعلم أني أنا ذكرتك بها). قال تعالى عن السحرة ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا

(١) سورة الملك، الآيتان: ٢٠، ٢١.

﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾[١] فهو سبحانه الذي يكفي عبده وينصره ويرزقه ويكلؤه)[٢].

الثامن عشر: إذا صح الإيمان أثمر محبة الله للعبد وأثمر محبة العبد لربه؟ فالله عز وجل يُحِب ويُحَب. قال تعالى ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾[٣] وهو سبحانه يُعبد بالخوف والرجاء والمحبة قال تعالى ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾[٤].

فإذا أوقع الله محبته في قلب عبده حيا ذلك القلب وطلب رضى محبوبه بكل طريق، واستيقظ يتقلب في سره وعلانيته وفي شدته ورخائه على مراقي العبودية، فمن وفقه الله أحبه. قال ﷺ: «**قال الله تعالى: ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه**». رواه البخاري.

قال ابن القيم رحمه الله عن المحبة: (وهي المنزلة التي فيها يتنافس المتنافسون، وعليها تفانى المحبون، وبروح نسيمها تروح العابدون، فهي قوت القلوب، وغذاء الأرواح، وقرة العيون، وهي الحياة التي من حرمها فهو من الأموات، والشفاء التي من عدمها حلت في قلبه جميع الأسقام، واللذة التي من لم يظفر بها فعيشه كله هموم وآلام، تالله لقد ذهب أهلها بشرف الدنيا والآخرة، إذ لهم من معية محبوبهم أوفر نصيب،

---

(١) سورة البقرة، آية: ١٠٢.
(٢) إغاثة اللفهان، ابن القيم ج١، ص٣٤.
(٣) سورة المائدة، آية: ٥٤.
(٤) سورة الأنبياء، آية: ٩٠.

وقد قضى الله أن المرء مع من أحب، فيا لها من نعمة على المحبين سابغة، تالله لقد سبق القوم السعاة وهم على ظهور الفرش نائمون)(١).

وانظر إلى صفات الذين أحبهم الله وأحبوه من خلال هذه الآية. قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ يُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ﴾(٢).

قال ابن القيم: (فقد ذكر لهم أربع علامات الأولى والثانية أنهم أذلة أعزة. قيل معناه أرقاء رحماء مشفقين عليهم عاطفين عليهم. قال عطاء: كالولد لوالده والعبد لسيده، وعلى الكافرين كالأسد على فريسته. العلامة الثالثة الجهاد في سبيل الله بالنفس واليد واللسان والمال، وذلك تحقيق دعوى المحبة. العلامة الرابعة أنهم لا تأخذهم في الله لومة لائم وهذا علامة صحة المحبة.

وذكر الله الذين يحبهم في القرآن فهو سبحانه يحب التوابين والصابرين والمحسنين والمتطهرين والمتقين والذين يقاتلون في سبيله وضد ذلك فإن الله لايحب الفساد والظلم والاختيال والفخر، وذكر الهروي تعريف المحبة فقال: هي تعلق القلب بين الهمة والأنس ومبادئها، فقال: محبة تقطع الوساوس وتسلي عن المصائب)(٣).

وهكذا فإن من ثمرات الإيمان نزول محبة الله في قلب العبد فيثمر له

---

(١) مدارج السالكين «منزلة المحبة».
(٢) سورة المائدة، آية: ٥٤.
(٣) تهذيب مدارج السالكين ص٥١٥ وما بعدها.

ذلك الشوق إلى لقاء ربه وتتبع مراضيه وعدم الملل والسآمة من متابعة العمل وتحمل المشاق في سبيل الله واستحلاء ذلك. قال ﷺ: «**لن يشبع مؤمن من خير حتى يكون منتهاه الجنة**» رواه الترمذي. وقال عمر بن عبد العزيز فيما معناه: (إن لي نفسًا تواقة فتاقت إلى الإمارة ثم إلى الخلافة وإنها الآن تتوق إلى الجنة).

ولابد من البرهان على صدق دعوى محبة العبد لربه قال تعالى: ﴿**قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴿٣١﴾﴾[1]. والناظر اليوم في حال الكثير منا يجد أن المحبة مجرد دعوى لم تقم حقيقتها في القلوب؛ لأنها قد انطوت على محبة الدنيا ومحبة النفس للفخر واتباع الهوى والحسد والمنافسة ومحبة المدح والثناء والتزين أمام الخلق والخوف من هبوط المنزلة في أنظارهم إذا اعتراف بالحق أو قام بعمل لوجه الله يرى أن منزلته وقيمته العلمية والاجتماعية فوق ذلك العمل.

ولو صدقت المحبة لله لطهرت القلوب من كل هذه العثرات والخبايا الكامنة والإلتواءات الوبيلة التي مكن لها إيثار حظ النفس وملاحظة الخلق وضعف الحياء والمراقبة لله. عن قتادة بن النعمان قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا أحب الله عبداً حماه في الدنيا كما يحمي أحدهم سقيمه الماء**»[2].

(١) سورة آل عمران، آية: ٣١.

(٢) رواه الترمذي والحاكم والبيهقي، صحيح الجامع: ج١، ٢، ص ١٣٨.

التاسع عشر: إذا صح إيمان طالب العلم نظر في علمه هل هو من العلم النافع أم لا؟ فإن طلب العلم هو أفضل عبادة بعد الفرائض كما ذهب إلى هذا الشافعي وغيره لأن العلم هو الموصل إلى طاعة الله ومحبته وإلى اتباع الرسول ﷺ، وأولوا العلم هم أصحاب الميراث النبوي وحملة الدين. قال الله تعالى لنبيه ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾[1].

فلو كان شي أفضل من العلم لأمر الله نبيه أن يسأله منه، وصار العلم بهذه المنزلة لأنه يتقرب به إلى الله، فلينظر طالب العلم في علمه، فإن زاده علمه عبادة وإنابة إلى ربه وتواضعاً وخشوعاً وأدباً وخلقاً للآخرين فليفرح بذلك فإن هذه علامة العلم النافع، وإن رأى أن علمه ازداد به تعاظماً في نفسه وقسوة في قلبه وصار لنفسه حظاً من ذلك في مماراة السفهاء ومباهاة العلماء واجتياز المجالس ومنافسة الأقران وطلب المكانة والمنزلة في قلوب الآخرين واشترى بعلمه الثناء والرياء والسمعة فإن العلم هنا غير نافع، بل صاحبه من أول من تسعر بهم النار يوم القيامة عياذاً بالله.

قال ابن رجب رحمه الله: (يدل العلم النافع على أمرين أحدهما يدل على معرفة الله وما يحبه الله ويرضاه وما يكرهه ويسخطه، قال طائفة من الصحابة: «**إن أول علم يرفع من الناس الخشوع**» رواه الترمذي. وقال الحسن: العلم علمان فعلم اللسان فذاك حجة الله على ابن آدم، وعلم القلب فذاك العلم النافع. وكان الإمام أحمد رحمه الله يقول عن معروف: معه أصل العلم خشية الله، وعن زيد بن أرقم رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان

(١) سورة طه، آية: ١١٤.

يقول: «**اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يستجاب لها**» رواه مسلم. ثم قال رحمه الله: إن علامة العلم النافع أن يدل صاحبه على الهرب من الدنيا وأعظمها الرياسة والشهرة والمدح وصاحبه لا يدعي العلم ولا يفخر به على أحد ولا ينسب غيره إلى الجهل إلا من خالف السنة وأهلها. سئل أبو حنيفة عن علقمة والأسود أيهما أفضل فقال: والله ما نحن بأهل أن نذكرهم فكيف نفضل بينهم؟

وقلة الكلام عند السلف إنما كانت ورعاً وخشية. قال ابن عباس لقوم سمعهم يتمارون في الدين: (أما علمتم أن لله عباداً أسكتتهم خشية الله من غير عي ولا بكم وإنهم لهم الفصحاء والطلقاء والنبلاء. العلماء بأيام الله غير أنهم إذا تذكروا عظمة الله طاشت عقولهم وانكسرت قلوبهم وانقطعت ألسنتهم حتى إذا استفاقوا من ذلك يسارعون إلى الله بالأعمال الزاكيات يعدون أنفسهم من المفرطين وإنهم لأكياس أقوياء مع الظالمين الخاطئين، وإنهم لأبرار بُرآء) أخرجه أبو نعيم.

وقال بعض السلف: إن كان الرجل ليجلس إلى القوم فيرون أن به عيًّا وما به من عي، إنه لفقيه مسلم.

وفي الجملة: ففي هذه الأوقات الفاسدة إما أن يرضى الإنسان لنفسه أن يكون عالماً عند الله، أو لا يرضى إلا بأن يكون عند أهل الزمان عالماً، فإن رضي بالأول فليكتف بعلم الله فيه، ومن كان بينه وبين الله معرفة اكتفى بمعرفة الله إياه، ومن لم يرض إلا بأن يكون عالماً عند الناس دخل في قوله

ﷺ: «من طلب العلم ليباهي به العلماء، أو يماري به السفهاء، أو ليصرف وجوه الناس إليه، فليتبوأ مقعده من النار»(١).

وقال الحسن: لا يكن حظ أحدكم من عمله أن يقول له الناس «عالم».

ومن هذا القبيل كراهة السلف الجرأة على الفتيا والحرص عليها والمسارعة إليها والإكثار منها عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: أدركت عشرين ومائة من الأنصار من أصحاب رسول الله ﷺ يُسأل أحدهم عن المسالة ما منهم رجل إلا ود أن أخاه كفاه، وفي رواية فيردها هذا إلى هذا، وهذا حتى يرجع إلى الأول. وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال: (إن الذي يفتي الناس في كل ما يسألونه لمجنون). إسناده صحيح. وقال عمر بن خلده: إذا سُئلت عن مسألة فلا يكن همك تخليص السائل، ولكن تخليص نفسك أولا. إسناده صحيح.

ومن هذا الباب كراهة أن يشهر الإنسان نفسه بالعلم والزهد والدين أو بإظهار الأعمال والأقوال والكرامات ليزار وتلتمس بركته ودعاؤه.

وكتب وهب بن منبه إلى مكحول: أما بعد فإنك أصبت بظاهر علمك عند الناس شرفًا ومنزلة فاطلب بباطن علمك عند الله منزلة وزلفى. واعلم أن إحدى المنزلتين تمنع من الأخرى(٢).

---

(١) رواه ابن ماجه وابن حبان والحاكم وصححه وافقه الذهبي.

(٢) فضل علم السلف على علم الخلف، لابن رجب الحنبلي.

ثم قال ابن رجب رحمه الله مبينا أخلاق العالم أو طالب العلم المفتتن بعلمه: إن كَثُر العلماء في عصره فذُكروا بالعلم أحب أن يُذكر معهم، وإن بلغه أن أحداً أخطأ وأصاب هو فرح بخطأ غيره، وكان حكمه أن يسوءه ذلك، وإن سئل عن ما لا يعلم أنف أن يقول لا أعلم حتى يتكلف مالا يسعه في الجواب، وإن قال قولاً وتوبع عليه وصارت لديه رتبة عند من تابعه عليه ثم علم أنه أخطأ أنف أن يرجع عن خطئه لئلا تسقط رتبته عند المخلوقين، ويتجمل بالعلم كما تتجمل بالحلة الحسناء للدنيا، ولا يجمل علمه بالعمل به.

وقال سفيان: من أحب أن يُسأل فليس بأهل أن يسأل. رواه الخطيب وإسناده حسن»[١].

العشرون: إذا صح إيمان العبد قامت في قلبه حقيقة الشكر لله والاعتراف له بالفضل والمنة واستشعر قوله تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾[٢] واستحضر أن كل ما به من قوة وسمع وكلام وبصر وحركة وقدرة وذكاء وعقل وأخذ وعطاء وأكل وشرب ونفس وأن ما احتوى عليه هذا الجسم من خلايا وعروق وأنسجة وأعصاب وما يجري فيه من دماء أن كل ذلك وغيره مما نعلم ومما لا نعلم أنه من الله وبتدبيره وفضله ورعايته وحفظه، ليس فقط على المتقين العابدين بل على الناس أجمعين مسلمهم وكافرهم وبرهم وفاجرهم وبهائمهم وإنسهم وجنهم ورطبهم ويابسهم.

---

(١) المرجع السابق.
(٢) سورة النحل، آية: ٥٣.

قــال تعــالـى: ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ ﴾(١).

قال العلماء: الشكر يقوم على ثلاثة أركان:

الأول: الاعتراف باللسان أي التحدث بالنعمة ونسبتها إلى الله.

الثاني: الاعتقاد الصادق بالقلب بأن الله هو واهب النعم.

الثالث: استعمال النعم في طاعة الله وبذلها فيما يرضيه.

عن بكر المزني قال: يا ابن آدم إذا أردت أن تعلم قدر ما أنعم الله عليك فغمض عينيك. وقال آخر: كم من نعمة لله في عرق ساكن لو شاء الله أن يحركه حركه فأزعج صاحبه.

فهذه النعم مما يسأل الإنسان عن شكرها يوم القيامة ويطالب بها. قال تعالى ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ ﴾(٢).

«والغفلة عن النعم لها أسباب منها: الجهل بعظم النعمة التي تعم الخلق، فالجاهل لا يعد الهواء والصحة مثلاً نعمة، وإذا ابتلي أحد بشيء سلب منه ثم عاد إليه اعتبر ذلك نعمة يشكر الله عليها، وهذا جهل لأنه جعل الشكر موقوف على سلب النعمة ثم درها، فلا يشكر البصير إلا إذا عمي ثم رد الله عليه بصره، فمثل هذا مثل عبد السوء يضرب دائمًا فإذا ترك ضربه ساعة شكر واعتبر ذلك منّة، وإن ترك ضربه أصلاً غلبه البطر وترك الشكر.

---

(١) سورة النحل، آية: ١٨.
(٢) سورة التكاثر، آية: ٨.

ومن نعم الله أنه ما من أحدٍ إلا وهو يعرف من بواطن أمور نفسه وخفايا الكثير من القبائح ولو كشف الغطاء واطلع عليه أحد من الخلق لافتضح، وكيف لو اطلع الناس كلهم عليها، فلِمَ لا نشكر الله بستره الجميل على مساوئنا حيث أظهر الجميل وستر القبيح؟ قال الرسول ﷺ: «**انظروا إلى من هو أسفل منكم، ولا تنظروا إلى من فوقكم فإنه أجدر ألا تزدروا نعمة الله عليكم**» رواه مسلم.

إن من قامت في قلبه حقيقة الشكر استشعر أنه بين نعمة وذنب ولا تصلح النعمة إلا بالحمد والشكر، ولا يصلح الذنب إلا بالتوبة والاستغفار، إننا نشاهد المرضى والمبتلين والجناة والذين يُقَتَّلون ويُعَذَّبون فنشكر الله على السلامة، ونحضر إلى المقابر فنعلم أن أحب الأشياء للموتى أن يُردوا إلى الدنيا ليتدارك من عصى عصيانه، وليزيد في الطاعة من أطاع، ولكن هيهات لهم. فعلينا أن نشكر الله الذي بسط علينا الحياة لنعمل صالحًا ونتوب إليه.

قال موسى عليه الصلاة والسلام: يا رب إن أنا صليت فمن قبلك، وإن أنا تصدقت فمن قبلك، وإن أنا بلغت رسالتك فمن قبلك، فكيف أشكرك؟ قال الآن شكرتني. وذكر ابن أبي الدنيا أن محارب بن دثار كان يقوم بالليل ويرفع صوته أحيانًا ويقول: أنا الصغير الذي ربيته فلك الحمد، وأنا الضعيف الذي قويته فلك الحمد، وأنا الفقير الذي أغنيته فلك الحمد، وأنا الصعلوك الذي مولته فلك الحمد، وأنا المسافر الذي صاحبته فلك الحمد، وأنا العاري الذي كسوته فلك الحمد، وأنا المريض

الذي شفيته فلك الحمد، وأنا الداعي الذي أجبته فلك الحمد. ربنا ولك الحمد حمدًا كثيرًا»[١].

إن الشكر ضرورة شرعية وثمرة كبيرة تدل على صدق الإيمان بنعم الله، وجميل ألطافه الغزار ومواهبه العظام، فهل نتفطن لذلك؟

(١) من كتاب الشكر لأبي بكر محمد بن أبي الدنيا ـ تحقيق بدر البدر ـ باختصار.

روضات المؤمنين

إن المؤمنين الصادقين هم الذين أنابوا إلى ربهم وتوجهوا إليه ووهبهم ربهم وأفاض عليهم من جزيل نعمه،وأسبغ عليهم الحياة الطيبة في نعيم قلوبهم وغذاء أرواحهم ورزقهم التلذذ بذكره وحلاوة مناجاته ورزقهم القناعة والسكينة والرضا واليقين، وأقر عيونهم بالخلوة به والوقوف بين يديه، وشرح صدورهم بالإيمان. قال تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَـٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾﴾[1]. قال رسول الله ﷺ: «**وجعلت قرة عيني في الصلاة**»، وقيل: (لأهل الليل في ليلهم أشد فرحًا من أهل الباطل في لهوهم).

والمؤمنون المنيبون إلي ربهم أحبوه فأحبهم وتولاهم، فصاروا يطلبون محابه ومراضيه في كل سبيل. قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: فحقيقة المحبة لا تتم إلا بموالاة المحبوب وهي موافقته في حب ما يحب وبغض مايبغض، ومعلوم أن الحب يحرك إرادة القلب، فكلما قويت المحبة في القلوب طلب القلب فعل المحبوبات، فإذا كانت المحبة تامة استلزمت إرادة جازمة في حصول المحبوبات، وقال شيخ الإسلام رحمه الله: (كلما ازداد القلب حبًّا لله ازداد له

---

(١) سورة الزمر، آية: ٢٢.

عبودية، وكلما ازداد له عبودية ازداد له حبًّا وحرية عما سواه، والقلب فقير بالذات إلى الله من الوجهين، من جهة العبادة وهي العلة الغائبة، ومن جهة الاستعانة والتوكل وهي العلة الفاعلة، فالقلب لا يصلح ولا يفلح ولا يلتذ ولا يسر ولا يطيب ولا يسكن ولا يطمئن إلا بعبادة ربه وحبه والإنابة إليه ولو حصل له كل ما يلتذ به من المخلوقات لم يطمئن ولم يسكن إذ فيه فقر ذاتي إلى ربه، وهذا لا يحصل له إلا بإعانة الله له، ولا يقدر على تحصيل ذلك له إلا الله، فهو دائمًا مفتقر إلى حقيقة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾[1].

وقال رحمه الله: وكل من استكبر عن عبادة الله لابد أن يعبد غيره، فإن الإنسان حساس يتحرك بالإرادة).

وإليك هذه القطوف من سير أسلافنا وهم يتقلبون في ربيع الإيمان الذي هو دواؤهم وبهجة نفوسهم، فبه يتنعمون ويلوذون عن أكدار الدنيا وصخبها وأطماعها وعن هموم معالجة الخلق، ومن ذلك: ما ذكره صاحب كتاب «أين نحن من أخلاق السلف».

١ـ قال الليث بن سعد وغيره: كتب رجل إلى ابن عمر أن اكتب لي بالعلم كله، فكتب إليه: إن العلم كثير ولكن إن استطعت أن تلقى الله خفيف الظهر من دماء الناس، خميص البطن من أموالهم، كاف اللسان عن أعراضهم، لازمًا لأمر جماعتهم فافعل.

---

(١) سورة الفاتحة، آية: ٥. الفتاوى، المجلد العاشر، ص١٩٣ وما بعدها.

٢ـ قال سليمان التيمي قال الأحنف: ثلاث فيَّ ما أذكرهن إلا لمعتبر: ما أتيت باب السلطان إلا أن أدعى، ولا دخلت بين اثنين حتى يدخلاني بينهما، وما أذكر أحدًا بعد أن يقوم من عندي إلا بخير.

٣ـ قال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: أنتم أطول صلاة وأكثر اجتهادًا من أصحاب رسول الله ﷺ، وهم كانوا أفضل منكم. قيل له بأي شيء؟ قال: إنهم كانوا أزهد في الدنيا وأرغب في الآخرة منكم، وقال: من أراد الآخرة أضر بالدنيا، ومن أراد الدنيا أضر بالآخرة، ياقوم أضروا بالفاني للباقي.

٤ـ قال شداد بن أوس: الخير كله بحذافيره في الجنة، والشر بحذافيره في النار، وإن الدنيا عرض حاضر يأكل منها البار والفاجر، والآخرة وعد صادق يحكم فيها ملك قاهر، ولكلٍ بنون فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا.

٥ـ قال ابن القيم: أنفع العمل أن تغيب فيه عن الناس بالإخلاص وعن نفسك بشهود المنة، فلا ترى فيه نفسك ولا ترى الخلق.

٦ـ قال الحسن البصري: إذا لم تقدر على قيام الليل، ولا صيام النهار، فاعلم أنك محروم قد كبلتك الخطايا والذنوب، وجاءه رجل يسأله: يا أبا سعيد أعياني قيام الليل فما أطيقه. فقال: يا ابن أخي استغفر الله وتب إليه، فإنها علامة سوء، وكان يقول: إن الرجل ليذنب الذنب فيحرم به قيام الليل.

٧ـ قال الذهبي: فقد ترى الرجل ورعًا في مأكله وملبسه

ومعاملته، وإذا تحدث يدخل عليه الداخل من حديثه، فإما أن يتحرى الصدق فلا يكمل الصدق، وإما أن يصدق فينمق حديثه ليمدح على الفصاحة وإما أن يظهر أحسن ما عنده ليُعظّم وإما أن يسكت في موضع الكلام ليثنى عليه، ودواء ذلك كله الانقطاع عن الناس إلا من الجماعة.

٨- قال أبو عبدالله الأنطاكي: اجتمع الفضيل والثوري فتذاكرا، فرق سفيان وبكى ثم قال: أرجو أن يكون هذا المجلس رحمة وبركة، فقال له الفضيل: لكني يا أبا عبدالله أخاف أن لا يكون أضر علينا منه، ألست تخلصت إليَّ أحسن حديثك، وتخلصت أنا إلى أحسن حديثي، فتزينت لي وتزينت لك. فبكى سفيان وقال: أحييتني أحياك الله.

٩- قال أبوبكر بن عياش: أدنى نفع السكوت السلامة وكفى به عافية، وأدنى ضرر المنطق الشهرة وكفى بها بلية.

١٠- قال أبو عبدالله البخاري: أرجو أن ألقى الله، ولا يحاسبني أني اغتبت أحدًا.

١١- قال سهل التستري: إن أخلاق الصديقين ألا يحلفوا بالله، وألا يغتابوا ولا يُغتاب عندهم، وألا يشبعوا، وإذا وعدوا لم يخلفوا، ولا يمزحون أصلاً[(١)].

---

(١) من كتاب «أين نحن من أخلاق السلف» لعبد العزيز الجليل وبهاء الدين عقيل.

من قواصم الإيمان

إن الأسباب المنافية للإخلاص كثيرة والتي توجب ضعف الإيمان وتضعف أثره، فمنها الرياء والسمعة والعجب والغرور والتكبر والإدلال والمداهنة والكذب ومحبة المدح وطلب المنزلة في قلوب الناس، وسأقتصر على اثنين منها وهما العجب والرياء.

أولاً: العجب

آفة خطيرة على حياة العابدين لأن العبادة هي كمال الذل مع كمال المحبة والعجب ينافي الذل والافتقار إلى الله، فهو رؤية النفس والطاعة والافتخار بالعبادة والإنجازات الخيرية والمآثر الإصلاحية، ولما عجز الشيطان عن الصلحاء في إغرائهم بالمعاصي أتاهم من طريق خفي من داخل أنفسهم، أتاهم بداء العجب والتعاظم، وإضافة الخير إلى النفس.

قال المحاسبي: العجب بالدين حمد النفس على ما عملت أو علمت، ونيسان النعم من الله عز وجل عليك بذلك. فحمد النفس ونسيان النعم هوالعجب بالدين.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: والعجب قرين الرياء لكن الرياء من باب الإشراك بالخلق، والعجب من باب الإشراك بالنفس، فالمرائي لا يحقق قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾، والمعجب لا يحقق قوله: ﴿وَإِيَّاكَ

﴿نَسْتَعِينُ ۝﴾، فمن حقق قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ خرج عن الرياء، ومن حقق قولهَ ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝﴾ خرج عن الإعجاب.

الفرق بين الكبر والعجب:

(العجب أن يعجب بعمله فيحمد نفسه عليه وينسى منة ربه بذلك، ولايتكبر على أحد، والكبر إذا أخرجه العجب إلى أن يرى أنه خير من غيره فيحقره ويزدريه، فيكون حينئذٍ متكبرًا معجبًا)[١].

والإدلال يوجب توقع الجزاء مثل أن يتوقع إجابة دعائه وينكر رده. قال الرسول ﷺ: «**لو لم تكونوا تذنبون خشيت عليكم أكثر من ذلك العجب**»[٢].

وأما عن خطر العجب وعظم آفاته وأضراره فقد قال الغزالي: اعلم أن آفات العجب كثيرة، فإن العجب يدعو إلى الكبر، فيتولد من العجب والكبر الآفات الكثيرة التي لا تخفى، والعجب يدعو إلى نسيان الذنوب وإهمالها، وأما العبادات فإنه يستعظمها ويتبجح بها، ويمن على الله بفعلها وينسى نعمة الله عليه بالتوفيق والتمكين منها، والمعجب يغتر بنفسه وبرأيه ويأمن مكر الله وعذابه، ويظن أنه عند الله بمكان، ويخرجه العجب إلى أن يثني على نفسه ويحمدها ويزكيها[٣].

---

(١) مختصر منهاج القاصدين. ص: ٢٥٤.
(٢) الحديث أخرجه العقيلي وابن عدي وحسنه الألباني.
(٣) معالم في السلوك. لعبد العزيز العبد اللطيف، ص: ٦٥، ٩٥.

قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا﴾(١)، وقال ﷺ: «**ثلاث مهلكات: شح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه**» رواه الطبراني وحسنه الألباني. وقال حذيفة بن اليمان رضي الله عنه: «بحسب المرء من العلم أن يخشى الله، وبحسبه من الجهل أن يعجب بعلمه».

ومن أسباب العجب مايلي:

١ـ الجهل بحق الله تعالى وعدم تقديره حق قدره وقلة العلم بأسماء الله تعالى وصفاته وضعف التعبد لله بهذه الأسماء والصفات.

٢ـ الغفلة عن حقيقة النفس وقلة العلم بطبيعتها والجهل بعيوبها وأدائها وإهمال محاسبتها ومراقبتها.

٣ـ الإطراء والمدح في الوجه دون مراعاة الضابط الشرعي في ذلك، وهو ألا يكون في المدح إفراط ومجاوزة للحد، وأن يكون بالحق لا بالباطل، وأن يكون المدح لمن لايخشى عليه الفتنة من إعجاب وغيره.

٤ـ صحبة نفرٍ من ذوي الإعجاب بأنفهسم.

٥ـ الوقوف عند النعمة ونسيان المنعم والله يقول: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾(٢).

٦ـ الإغترار بالصدارة بالعمل قبل النضج وكمال التربية.

---

(١) سورة التوبة، آية: ٢٥.

(٢) سورة النحل، آية: ٥٣.

٧ـ المبالغة بالتوقير والاحترام.

٨ـ التعاظم بسبب عراقة النسب وشرف الأصل، والله يقول: ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾[(١)].

وأما علاج العجب فهو أن تعلم أنك وما بك وما صدر منك فهو من الله سبحانه الخالق الواهب مسبغ النعم ومُوليها. قال تعالى: ﴿ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾[(٢)]، وأن تعلم أن الله منَّ عليك بنعمة الهداية للإسلام. قال تعالى: ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ ﴾[(٣)].

قال ابن القيم رحمه الله: (اعلم أن العبد إذا شرع في قول أو عمل يبتغي به مرضاة الله مطالعًا فيه منة الله عليه به وتوفيقه له فيه، وأنه بالله لا بنفسه ولا بمعرفته وفكره وحوله وقوته بل هو الذي أنشأ له اللسان والقلب والعين والأذن، فالذي منَّ عليه بذلك هو الذي منَّ عليه بالقول والفعل، فإذا لم يغب ذلك عن ملاحظة ونظر قلبه لم يحضره العجب الذي أصله رؤية النفس وغيبته عن شهود منّة ربه وتوفيقه)[(٤)].

فمن علم أن الله تعالى مقلب القلوب وأن القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء وأن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يرى الناس وأنه لمن أهل النار إذا علم ذلك أثمر هذا الإيمان

---

(١) من كتاب آفات على الطريق للسيد أحمد نوح، سورة المؤمنون، آية: ١٠١.
(٢) سورة لقمان، آية: ٢٠.
(٣) سورة الحجرات، آية: ١٧.
(٤) الفوائد، ص: ١٤٤.

خوفًا ووجلاً وتذللاً وخضوعًا.

قال ابن بطال: (في تغييب خاتمة العمل حكمة بالغة وتدبير لطيف لأنه لو علم وكان ناجياً أعجب وكسل وإن كان هالكاً ازداد عتواً فحجب عنه)[(١)].

وإن من كمال رحمة الله تعالى وتمام حكمته سبحانه أن جعل النفس البشرية قابلة للخير والشر، فكل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون، قال ﷺ: «**لو لم تكونوا تذنبوا خشيت عليكم أكثر من ذلك العجب**».

قال ابن القيم رحمه الله: (فلولا تقدير الذنب هلك ابن آدم من العجب)، وقال ابن الجوزي: إن النفس لو دامت لها اليقظة لوقعت فيما هو شر من فوت ما فاتها وهو العجب بحالها والاحتقار لجنسها، وربما ترقت بقوة عملها وعرفانها إلى دعوى لي وعندي وأستحق، فتركها في حومة الذنب تتخبط، فإذا وقفت على الشاطيء، وقامت بحق ذلة العبودية أولى لها)[(٢)].

قال بعض السلف: إن العبد ليعمل الذنب فيدخل به الجنة ويعمل الحسنة فيدخل بها النار أ.هـ. ومعنى ذلك أن يعمل العبد الحسنة فلا يزال معجباً بها فيتكبر ويغتر فيمقته ربه ويغضب عليه فيدخله النار، والآخر يعمل الذنب فيرجع إلى ربه نادماً تائباً منكساً رأسه فيستشعر

---

(١) معالم في السلوك، ص: ١٠٠.
(٢) المرجع السابق.

ذله وفقره إلى ربه، فيلبس لباس ذل العبودية والتقرب إلى ربه مجتهداً طالباً عفوه، فيرضى عنه ربه فيدخله الجنة.

قال ابن حزم رحمه الله: وإن أعجبت بآرائك فتفكر في سقطاتك واحفظها ولا تنسها، وفي كل رأي قدرته صواباً فخرج تقديرك وأصاب غيرك وأخطأت أنت، وأنه موهبة من الله مجردة وهبك إياها ربك تعالى فلا تقابلها بما يسخطه، فلعله ينسيك ذلك بعلة يمتحنك بها تولد عليك نسيان ما عملت وحفظت، وإن أعجبت بمدح إخوانك فتفكر في ذم أعدائك إياك، فحينئذ ينجلي عنك العجب، فإن لم يكن لك عدو فلا خير فيك، ولا منزلة اسقط من منزلة من لا عدو له، فليست إلا منزلة من ليس لله تعالى عنده نعمة يحسد عليها.. عافانا الله، فإن استحقرت عيوبك ففكر فيها لو ظهرت إلى الناس وتمثل اطلاع الناس عليها، فحينئذ تخجل وتعرف نقصك)[1].

---

(١) مختصر منهاج القاصدين، ص: ٢٣٣.

ثانيًا: الرياء والسمعة.

الرياء: مشتق من الرؤية، والسمعة: مشتقة من السماع، فالمرائي يرائي الناس ما يطلب به الحظوة عندهم[١].

والرياء داء خطير وباب للشيطان على المؤمنين، فلقد خافه الرسول ﷺ على صحابته وهم سادات الأولياء وخير القرون، فقال ﷺ: «**ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدجال**» قالوا: بلى قال: «**الرياء، يقوم الرجل فيزين صلاته لما يرى من نظر رجل**»[٢].

والمقصود بالرياء إظهار العمل للناس وإطلاعهم عليه والتعريض فيه بأي وسيلة، وهو مطلب للنفس تلح فيه للتخلص من مشقة العبادة، ولذا فإن الإخلاص عزيز وعظيم لأنه ليس للنفس فيه نصيب، ومن صدق في إخلاصه اكتفى باطلاع الله عليه والتفت عن الخلق.

قال ابن قدامة في أقسام الرياء:

الأول: الرياء في **الدين**: وهو أنواع:

١ـ أن يكون من جهة البدن بإظهار النحول والصفار ليريهم بذلك شدة الاجتهاد، وغلبة خوف الآخرة، وَيقْرب من ذلك خفض الصوت، وإغارة العينين وذبول الشفتين ليدل بذلك على أنه مواظب

---

(١) المرجع السابق.

(٢) رواه أحمد.

على الصوم.

٢ـ الرياء بالقول كالرياء بالوعظ وحفظ الأخبار والآثار لأجل المحاورة وإظهار غزارة العلم وتحريك الشفتين بالذكر في محضر الناس، وإظهار الغضب للمنكرات بين الناس وخفض الصوت وترقيقه بقراءة القرآن.

٣ـ الرياء من جهة الزي كالإطراق حالة المشي وإبقاء أثر السجود على الوجه وتقصير الأكمام وترك الثوب غير نظيف.

٤ـ الرياء بالعمل كمراءاة المصلي بطول القيام والركوع والسجود وإظهار الخشوع.

٥ـ المراءاة بالأصحاب والزائرين كالذي يتكلف أن يزور عالمًا أو عابدًا ليقال إن فلانًا زار فلانًا، ومن يرائي بكثرة الشيوخ ليقال لقي شيوخًا كثيرة[١].

إلى غير ذلك من الأمثلة والأحوال الكثيرة الخفية التي سببها ترك النفس تجري وتسعى فيما يريحها عند الخلق مباشرة أو غير مباشرة، ومن ذلك:

١ـ أن يتكلف الشخص أن يطلع الناس على عبادته تعريضًا أو تصريحًا.

٢ـ محبة أن يبدأه الناس بالسلام ويقابلوه بالبشاشة والتوقير،

---

(١) مختصر منهاج القاصدين، ث: ٢٣٣ وما بعدها باختصار.

وينشطوا في قضاء حوائجه ويسامحوه في المعاملة، فإن لقي في ذلك مقصرًا ثقل ذلك على قلبه، كأن نفسه تتقاضى الاحترام على الطاعة التي أخفاها.

٣ـ لم يزل المخلصون خائفين من الرياء الخفي يجتهدون في مخادعة الناس عن أعمالهم الصالحة ويحرصون على إخفائها أعظم مما يحرص الناس على إخفاء فواحشهم.

٤ـ ومتى أدرك الإنسان من نفسه تفرقة بين أن يُطّلع على عباداته أو لا يُطلع ففيه شعبة من الرياء.

٥ـ ومن أخفى الطاعة مخلصًا لله، ثم علم الناس بذلك ففرح بذلك بحسن صنع الله حيث أظهر الله طاعته وستر معصيته ففرح بذلك، فهذا محمود لا لحمد الناس له، وقيام المنزلة في قلوبهم حتى يمدحوه ويعظموه ويقضوا حوائجه، فهذا مكروه مذموم[(١)].

عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قيل يا رسول الله أرأيت الرجل يعمل العمل من الخير ويحمده الناس عليه. فقال: «**تلك عاجل بشرى المؤمن**» رواه مسلم.

فأما إذا أعجبه ليعلم الناس منه الخير ويكرموه عليه فهذا رياء.

---

(١) المرجع السابق (مختصر منهاج القاصدين).

وسائل التربية الإيمانية

تقدم معنا أن الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية فكل طاعة تزيد الإيمان، وكل معصية تنقصه وكلما قوي الإخلاص والصدق في الطاعة وتمت المتابعة للرسول ﷺ كلما ازداد الإيمان وعمر القلب باليقين وازداد معرفة بالله وإقبالاً عليه واستشعر شدة فقره وضرورته إلى مولاه فأخبت إلى ربه وأناب قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾(١).

فمن كانت هذه حاله ازداد معرفة بنفسه الجاهلة الظالمة الأمارة بالسوء، وأدرك أنه إن وُكِلَ إلى نفسه فقد وكل إلى عجز وهوى وظلم وقصور وضعف وإلى كل بلية ورزية وخذلان، وعلم الموفق أنه بالله ومن الله وإلى الله، فلا غنى له عنه طرفة عين، وهذه الوسائل تصلح أن تكون ثمرات يقطفها المؤمن من شجرة إيمانه التي إذا سقاها بالصدق والإخلاص والتقوى وسائر أعمال القلوب الصالحة أينعت وتدفقت بالخيرات من كل جانب، فلعلك أخي القارىء تدرك أن بين الوسائل والثمرات هنا تشابه، فكل منهما ثمرة للآخر.

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إن

---

(١) سورة الحج، آية: ٣٥

الإيمان ليخلق في جوف أحدكم كما يخلق الثوب، فاسألوا الله تعالى أن يجدد الإيمان في قلوبكم»[١].

ومن تلك الوسائل المعينة على زيادة الإيمان وتثبيته ما يلي:

١ـ أن توظف الأقوال والبحوث والبرامج والتوجيهات والدروس لتكون كلها مذكرة بالله، وداعية لتحيي القلوب وتدرك أن الغاية من الخلق العبادة، ولتعلم أن الغاية من كل عبادة هي إقبال القلوب على ربها خاشعة ذليلة منكسرة لتحقيق حقيقة العبودية، لأن الله إنما شرع الشرائع وأنزل الكتب وأرسل الرسل وأقام سوق الجهاد في هذه الدار لترجع القلوب إليه، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ۝٢٥﴾[٢].

فمن الضعف والقصور في التربيه الإيمانية أن تكون الدروس والبحوث والمناهج علمية فقط لا تحيي القلوب ولا تؤثر في السلوك، فمن الخطأ مثلاً أن نأخذ درساً في الغيبة والنميمة، فنسرد النصوص والأسباب والعلاج نظرياً، ثم ندع الموضوع جانباً ونرجع مباشرة في نفس الوقت والمكان ونقع في المحظور الذي عالجه الدرس، فلابد من التطبيق العملي والتأثير السلوكي وربط القلوب بالله لتتقيه وتحذر من الوقوع في معصيته.

ومن الخطأ مثلاً: أن نأخذ درسًا في غزوة بدر ونعرف تاريخها

---

(١) رواه الطبراني والحاكم، صحيح الجامع، ج٦، ص:٥٦.
(٢) سورة الأنبياء، آية: ٢٥.

ومكانها وعدد المسلمين والمشركين ونتيجة تلك المعركة، ثم ننتهي بهذه المعلومات التاريخية النظرية، بل لابد من معرفة أسرار الانتصار والهزيمة وربط الموضوع بواقع الأمة وما تعانيه من هزائم وأسباب ذلك، ومعرفة حكمة الله في مشروعية الجهاد وثواب المجاهدين وتحريك القلوب لنيل الشهادة، أي: أنه لابد أن يحمل الموضوع الروح المؤثرة التي تحدو المؤمن للعمل الجاد لتحقيق الانتصار على نفسه أولاً ثم عدوه ثانيًا وتعريف المؤمن بأعدائه وموقفه منهم.

ومن القصور كذلك أن نأخذ درسًا في التفسير فنكتفي بمعاني المفردات وسبب النزول والشواهد والشرح الإجمالي للآيات ثم لا نربط الآيات بواقع الناس وننسى التذكير بعظمة كلام الله، والوقوف عند عجائبه، وما فيه من كنوز وأسرار.

٢ـ العناية بالبرامج العملية التي تذكر بالله: كزيارة المقابر ومجالسة الصالحين، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر والإحسان إلى الناس مع الاستمرار والمتابعة، وبث روح المنافسة على الخير وإقامة البرامج الفردية، فيرسم الواحد برنامجًا لنفسه من العبادات كالصوم والوتر وقراءة القرآن والأوراد، والقراءة من الكتب النافعة والصدقات وتقديم الخدمة للأهل والجيران وسائر المحتاجين.

٣ـ إثارة موضوع الاحتساب ومعالجة الزهد فيه، فإنك تجد أعمالاً من الطاعات ميسورة سهلة وقد رتب الله عليها الأجور العظيمة، ولكن نظرًا لضعف الإيمان والزهادة في الخير نجد أن تلك

الأعمال شبه مهملة، فلم تلتفت القلوب إلى اغتنام الخيرات في نفس الوقت الذي تجد فيه الاهتمام والحرص والسعي لأجل الدنيا سواء مالها أو مناصبها أو شهواتها، أو السعي لطلب رضى الخلق والرغبة في مديحهم وثنائهم، فلابد من التذكير بما عند الله، والتذكير بحاجة العبد للحسنة الواحدة.

قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾(١) ويوم يقول كل واحدٍ يوم القيامة نفسي نفسي، وكذلك التذكير بنعمة الحياة التي هي فرصة العمل ونعمة الصحة حيث يتمني المريض والمقعد والميت يتمنون أشياءً كثيرة يقدر عليها المعافى.

وكذلك التذكير بيقظة الكفار والمنحرفين أهل الباطل وتضحيتهم بأوقاتهم للعمل بدنياهم وترويج أفكارهم، وجهدهم الدؤوب لنصرة باطلهم وبذلهم الكبير لأموالهم وكل ما يملكون من أجل باطلهم، فأين المسلم عن العمل لدينه، فإن عليه أن يكون أكثر منهم عطاءً وتقديمًا لنفسه لأنه على الحق. قال تعالى: ﴿إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾﴾(٢).

وإليك بعض الأمثلة السريعة لبعض العبادات الميسورة وما لها عند الله من عظم الأجر.

---

(١) سورة آل عمران، آية: ٣٠.

(٢) سورة النساء، آية: ١٠٤.

قال الله تعالى: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨ ﴾[1].

قال ﷺ: «لأن أقول سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر أحب إليّ مما طلعت عليه الشمس». رواه مسلم.

وقال ﷺ: «من قال سبحان الله العظيم وبحمده غرست له نخلة في الجنة» رواه الترمذي، صحيح الجامع. وعن عثمان رضي الله عنه قال: قال ﷺ: «من توضأ نحو وضوئي هذا ثم صلى ركعتين لا يحدث فيهما نفسه غفر له ما تقدم من ذنبه» رواه مسلم.

وعن أوس بن أوس قال: قال رسول الله ﷺ: «من دخل السوق فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو حي لا يموت بيده الخير وهو على كل شيء قدير كتب له ألف ألف حسنة ومحيت عنه ألف ألف سيئة ورفع له ألف ألف درجة وبني له بيت في الجنة» رواه أحمد والترمذي، صحيح الجامع، مجلد ٥، ٦. ص: ٢٨٨).

وقوله ﷺ: «الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله» وأحسبه قال: «وكالقائم لا يفتر وكالصائم لا يفطر» رواه البخاري ومسلم.

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من تزوج فقد

---

(١) سورة الزلزلة، آية: ٧-٨.

استكمل نصف الإيمان فليتق الله في النصف الباقي» رواه الطيالسي (صحيح الجامع، ج٥، ٦، ص: ٢٦٩).

وعن سعد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«من تصبح كل يوم بسبع تمرات عجوة لم يضره في ذلك اليوم سم ولا سحر»** رواه أحمد وأبوداود (صحيح الجامع، ج٥، ٦. ص: ٢٧٠).

وعن عبادة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«من تصدق بشيء من جسده أعطي بقدر ما تصدق»** رواه الطبراني (صحيح الجامع، ج٥، ٦. ص: ٢٧٠).

وعن ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«من عاد مريضًا لم يزل في خرفة الجنة حتى يرجع»** رواه مسلم.

وعن أوس بن أوس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«من غسل يوم الجمعة واغتسل، ثم بكَّر وابتكر ومشى ولم يركب، ودنا من الإمام واستمع وأنصت ولم يلغ كان له بكل خطوة يخطوها من بيته إلى المسجد عمل سنة أجر صيامها وقيامها»** رواه أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه. (صحيح الجامع، ج٥، ٦. ص: ٣٢٥).

وعن ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«من فارق الروح جسده وهو بريء من ثلاث دخل الجنة: الكبر والدين والغلول»**. رواه أحمد والترمذي والنسائي. (صحيح الجامع، ج٥، ٦. ص: ٣٢٦).

وعن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من مات على شيء بعثه الله عليه**» رواه أحمد والحاكم. (صحيح الجامع، ج٥،٦. ص: ٣٥٧).

وعن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من مشى إلى صلاة مكتوبة في الجماعة فهي كحجة، ومن مشى إلى تطوع فهي كعمرة نافلة**» رواه الطبراني. حديث حسن (صحيح الجامع، ج٥،٦. ص: ٣٦٠).

وعن أبي أمامة سهل بن حنيف رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من تطهر في بيته ثم أتى مسجد قباء فصلى فيه كان له كأجر عمرة**» رواه ابن ماجه. (صحيح الجامع، ج٥،٦. ص: ٢٧٥).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من جاء مسجدي هذا لم يأته إلا لخير يتعلمه أو يعلمه فهو بمنزلة المجاهد في سبيل الله، ومن جاءه لغير ذلك فهو بمنزلة الرجل الذي ينظر إلى متاع غيره**» رواه ابن ماجه والحاكم. (صحيح الجامع، ج ٥،٦. ص: ٢٧٨).

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من جعل الهموم همًّا واحدًا هم المعاد كفاه الله سائر همومه، ومن تشعبت به الهموم من أحوال الدنيا لم يبال الله في أي أوديتها هلك**» حديث حسن رواه ابن ماجه. (صحيح الجامع، ج٥،٦. ص: ٢٧٩).

وعن أم حبيبة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «من

حافظ على أربع ركعات قبل الظهر وأربع بعدها حُرم على النار» رواه الحاكم. (صحيح الجامع، ج٥، ٦. ص: ٢٨١).

وعن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: **«من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عصم من فتنة الدجال»** رواه أحمد ومسلم.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزلة ألا إن سلعة الله غالية ألا إن سلعة الله الجنة»** رواه الترمذي والحاكم. (صحيح الجامع، ج٥، ٦. ص: ٢٨٦).

وعن حذيفة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«من ختم له بصيام يوم دخل الجنة»** رواه البزار. (صحيح الجامع، ج٥، ٦. ص: ٢٨٧).

وعن واثلة قال: قال رسول الله ﷺ: **«من دفن له ثلاثة من الولد حرَّم الله عليه النار»** رواه الطبراني. (صحيح الجامع، ج٥، ٦. ص: ٢٩٠).

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«من دل على خيرٍ فله مثل أجر فاعله»** رواه أحمد ومسلم.

وعن أسماء بنت يزيد قالت: قال رسول الله ﷺ: **«من ذب عن عرض أخيه بالغيبة كان حقًّا على الله أن يعتقه من النار»** رواه أحمد والطبراني. (صحيح الجامع، ج٥، ٦. ص: ٢٩٠).

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«من ذكرت**

عنده فليصل عليَّ فإنه من صلى عليَّ مرة صلى الله عليه عشرًا» رواه الترمذي. (صحيح الجامع، ج٥، ٦. ص: ٢٩١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من رأني فإني أنا هو، فإنه ليس للشيطان أن يتمثل بي» رواه الترمذي. (صحيح الجامع، ج٥، ٦. ص: ٢٩٣).

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من نزلت به حاجة فأنزلها بالناس لم تسد فاقته، ومن نزلت به فاقة فأنزلها بالله فيوشك الله له برزق عاجل أو آجل» رواه الترمذي. (صحيح الجامع، ج٥، ٦. ص: ٣٦٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من وقاه الله شر ما بين لحييه وشر ما بين رجليه دخل الجنة» رواه الترمذي وابن حبان والحاكم (صحيح الجامع، ج٥، ٦. ص: ٣٦٧).

وعن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من رحم ولو ذبيحة عصفور رحمه الله يوم القيامة» رواه البخاري في الأدب المفرد والطبراني حديث حسن. (صحيح الجامع، ج٥، ٦. ص: ٢٩٤).

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من رد عن عرض أخيه رد الله عن وجهه النار يوم القيامة» رواه أحمد والترمذي. (صحيح الجامع، ج٥، ٦. ص: ٢٩٥).

وعن معاذ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من رفع حجرًا

عن الطريق كتب له حسنة ومن كانت له حسنة دخل الجنة» رواه الطبراني. حديث حسن (صحيح الجامع، ج٥،٦. ص: ٢٩٥).

وعن سهل بن حنيف قال: قال رسول الله ﷺ: «**من سأل الله الشهادة بصدق بلغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه**» رواه مسلم.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من سره أن يجد حلاوة الإيمان فليحب المرء لا يحبه إلا لله**» رواه أحمد والحاكم. حديث حسن. (صحيح الجامع، ج٥،٦. ص: ٣٠٠).

وعن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من سرته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن**» رواه الطبراني. (صحيح الجامع، ج٥،٦. ص: ٣٠١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سهل الله له طريقًا إلى الجنة**» رواه الترمذي. (صحيح الجامع، ج٥،٦. ص: ٣٠٢).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**من صام رمضان إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر**» رواه الخطيب البغدادي. (صحيح الجامع، ج٥،٦. ص: ٣٠٩).

وعن عثمان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من صلى العشاء في جماعة فكأنما قام نصف الليل، ومن صلى الصبح في جماعة فكأنما صلى الليل كله**» رواه أحمد ومسلم.

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من صلى الفجر في جماعة ثم قعد يذكر الله حتى تطلع الشمس ثم صلى ركعتين كانت له كأجر حجة وعمرة تامة تامة تامة**» رواه الترمذي. (صحيح الجامع، ج٥، ٦. ص: ٣١٣).

وعن عائذ بن قرط رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من صلى صلاة لم يتمها زيد عليها من سبحاته حتى تتم**» رواه الطبراني. (صحيح الجامع، ج٥، ٦. ص: ٣١٤).

وعن عبدالله بن حبيب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من ضن بالمال أن ينفقه، وبالليل أن يكابده، فعليه بسبحان الله وبحمده**» رواه أبونعيم في المعرفة. (صحيح الجامع، ج٥، ٦. ص: ٣٢٠).

٤- القدوة: إن التربية بالقدوة أعظم الوسائل في التأثير وغرس المعاني والفضائل والأعمال في النفوس ومن حكمة الله أن أرسل الرسل من أقوامهم فهم معهم يعيشون وبهم يتأثرون قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾[1].

ولما تأخر الصحابة في الحلق في قصة صلح الحديبية طمعًافي العمرة أشارت أم سلمة زوج النبي ﷺ عليه بأن يحلق ثم يخرج إليهم وفعل الرسول ﷺ ذلك فحلق الناس، فنحن بحاجة ماسة إلى قدوات تظهر

(١) سورة الأحزاب، آية: ٣٣.

عليهم آثار الإيمان والصدق واليقين، ويظهر عليهم أدب العلم، وزينة التعامل والخلق الكريم في السمت والوقار والخشوع والمسارعة إلى الخيرات وحسن التعبد لله، والإحسان إلى الخلق والتواضع وإبعاد حظ النفس.

ونحن بحاجة إلى القدوات في نظرتهم إلى الدنيا والزهادة فيها الذين تعلقت قلوبهم بالآخرة والإكثار من ذكرها كما قال تعالى عن بعض أنبيائه: ﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ۝٤٦﴾[١].

ونحن بحاجة إلى القدوات في تسجيل المواقف الخالدة الصادقة الأبية التي تقول الحق وتؤثر مرضاة الله على كل أحد فتصدع بالحق مدويًّا في جنبات المعمورة لتنفخ الروح في الأمة التي عشعش عليها الوهن وخيّم عليها حب الدنيا وكراهية الموت، لتبلغ تلك القدوات دين الله وتجهر به بالحكمة الشرعية ولا تخشى في الله ملام اللوام.

ونحن بحاجة إلى القدوات في عمارة الأوقات بالبذل والعطاء لخدمة هذا الدين في حركة دائمة لا تهدأ ولا تستريح همها إيصال الخير للآخرين ودلالة من ضل إلى الطريق الصحيح. فمن صح إيمانه فهو لا يشبع ولا يمل ولا يكل من الدعوة إلى الله وبذل النصح وتقديم المعونات والدلالة على الخير قال تعالى: ﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾[٢].

---

(١) سورة ص، آية: ٤٦.
(٢) سورة آل عمران، آية: ١٣٣.

وقال عز وجل: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾[1]. وقال ﷺ: **«لن يشبع مؤمن من خير حتى يكون منتهاه الجنة»** الترمذي.

٥-البعد والحذر ممايقسِّي القلوب: ويجلب لها الغفلة واللهو ويبعدها عن الحياة الجادة والحزم والعزيمة لأن المؤمنين الصادقين لا يضعون رحالهم إلا في الجنة إن شاء الله. وأما هنا في هذه الدنيا فهم قوم شمروا عن ساعد الجد ولم يعد في حياتهم مكان للاشتغال بغيرهمّ الآخرة ورضى الرحمن ومنفعة العباد، فركائبهم لا تقف ومساعيهم موصولة بربهم فلا مجال عندهم لكثرة الكلام والهزال والضحك وإضاعة الأوقات وكثرة النقد والتفكه في المجالس وكثرة اللقاءات الفارغة عما يفيد ويقوي الإيمان ويحي القلوب ويذكرها بما ينفعها ويطرد عنها الغفلة، ولا مجال لكثرة الرحلات والتنزهات التي تقسي القلوب ويغلب عليها الاسترخاء بعيدًا عن هموم المسلمين وأزماتهم وجراحهم وبعيدًا عن المنكرات والمنحرفين الذين يتوجب على الصادقين نصحهم وإرشادهم ودلالتهم على النور.

وقد قرر العلامة ابن القيم رحمه الله أن آفات الأخوة ثلاث: الأولى: الاجتماع والخلطة أكثر من الحاجة. الثانية: أن يكون الاجتماع رغبة ولذة يغيب بها عن المقصود. الثالثة: تزين الأخوان

---

(١) سورة الحديد، آية: ٢١.

بعضهم لبعض دون مناصحة وتوجيه[١].

إن المسلم الصادق لا يصح أن يبقى بلا مهمة يؤديها لدينه بقدر ما يستطيع، وعلى قدر ما يدرك حتى يحيا في قلبه الهمّ لهذا الدين، ويحيا في قلبه وروحه الشعور بالتبعة والمسؤولية والتألم لحال المسلمين وما هم فيه من انحراف عن جادة الصواب، ويستشعر أن الدعوة والمسؤولية وواجب الأمر والنهي ليس هو واجب فئة معينة من الناس والبقية يأكلون ويشربون وينامون وهم في حل وأمان كلا. وإنما القضية أكبر من ذلك فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض كفاية وإذا لم يقم به البعض عم الإثم الجميع فهل غُطيت المنكرات بالأمر والنهي وعولجت وقل الشر وغلبت كلمة الخير حتى نقول: إننا في أمان من واجب التبعة والمسؤولية أمام الله.

إن الواجب كبير والمسؤولية عظيمة والله يغضب ويغار إذا انتهكت حرماته، فالحذر من غضب الله والحذر من الشعور بالكمال الزائف الذي يزينه الشيطان.

إنه يوجد فئات من الشباب كانوا في يوم من الأيام أهل جد وعمل ومحافظة على الأوقات وأهل هم وبذل للإسلام. ثم دب إليهم داء السمر وكثرة الرحلات وإضاعة الأوقات في الأسفار والتنقلات وعاشوا أدواء الصحبة فأصبحت رغبة ولذة غابوا بها عن مقصود الاجتماع الأول وهو حمل هم الإسلام فضعف الإيمان وثقلت العبادة وتطاولت

---

(١) الفوائد لابن القيم.

الألسن في القيل والقال والغيبة والنميمة واللمز والاستهزاء وربما فرط البعض في صلاة الفجر مع الجماعة بسبب السهر العابث وانطفأت شعلة الإيمان من القلب أو كادت فرجعوا خائبين همهم مجرد الاجتماع وسلواهم الرحلات دون عمل للإسلام ودون محاسبة لأنفسهم عن ضياع أوقاتهم وعن غفلة القلوب عن خوف الله ورجائه.

اللهم إنا نعوذ بك من الحور بعد الكور، ومن الغفلة بعد الذكر ومن الموت للقلوب بعد حياتها، ومن الإهمال والعبث بعد الجد والنشاط.

ومن أعظم الغافلين من غفل وهو لا يشعر ومن كثرت سيئاته وقلت حسناته وهو آمن ضاحك لاهي. قال الحسن رحمه الله: (عجبًا لمن هو بين الجنة والنار وهو غافل لاهي). وقيل: يجب أن يكون الهم في خمس: في طاعة لا تدري هل قبلها الله منك أم لا؟ وفي معصية لا تدري هل غفرها الله لك أم لا؟ وأن تعلم أن لله دارين الجنة والنار. ولا تدري إلى أيتهما تصير؟ وأنك علمت عن حياتك الماضية وماذا قدمت فيها ولا تعلم على أي شيء تكون حياتك الباقية؟ والخامسة: لا تدري هل ربك راضٍ عنك أم ساخط عليك؟.

فانظر في أيامك - أيها المبارك - ماذا تودع فيها؟ وبأي شيء تقضيها؟ واقترب ممن يعينك على فعل الخيرات وترك المنكرات وحب المساكين، وعليك بزيارة من يذكرك بالله، ويوقظ قلبك ويُبكيك ويبصرك بعيوبك، ويحدوك للارتقاء بإيمانك ورفع همتك ويعينك على

البذل والتضحية، ويدلك على العلم النافع الذي يزيدك خشية لله. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[(١)].

وعليك بالتطبيق العملي لكل سنة تسمعها، و عليك بالامتثال لأوامر الله وتعظيمها وتوقيرها في نفسك، والإكثار من ذكر الله والاستغفار فإنهما دواء مباشر مجرب لحياة القلب وصرف هموم الدنيا، وتفريج كرباتها وتنفيس ضوائقها إذا واطأ القلب اللسان، وذكر العبد ربه مستحضرًا عظمته متدبرًا لمعنى ما يقول راجيًا الثواب العظيم المترتب على الذكر. قال تعالى: ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾﴾[(٢)].

٦-**المبادرة إلى فعل الحسنة**: وعدم التأخر عنها لتحصل المسابقة والمسارعة إلى فعل الخيرات فإن مرض العبد أو سافر استمر له أجرها وإن كان صحيحًا مقيمًا قادته تلك الحسنة إلى غيرها وقوته وحركت فيه الهمة لفعل غيرها وانشرح الصدر للمزيد من الطاعات وتطلبها في كل لحظة وفرصة. وإن مات العبد وهو على تلك الحال عامرًا أوقاته بالقربات لقي الله بها، ومن عاش على شيء مات عليه.

والإتيان بالحسنة بعد الحسنة علامة القبول إن شاء الله. عن عقبة ابن الحارث رضي الله عنه قال: «**صليت وراء النبي ﷺ العصر بالمدينة فسلم ثم قام مسرعًا فتخطى رقاب الناس إلى بعض حجر نسائه ففزع**

---

(١) سورة فاطر، آية: ٢٨.

(٢) سورة الأحزاب، آية: ٣٥.

الناس من سرعته فخرج عليهم فرأى أنهم عجبوا من سرعته فقال: ذكرت شيئًا من تبرٍ عندنا فكرهت أن يحبسني فأمرت بقسمته» رواه البخاري.

والحذر من الكسل والفتور وطاعة النفس وكثرة الاسترخاء، لأن الكسل إذا صاحب الإنسان قاده إلى الترك واستثقال العبادة والعمل في سبيل الله، والضعف يأتي بالتدرج فتجره نفسه وهواه إلى الزهادة في الأجر، ويصاحبه التسويف والنظر إلى من هو دونه حتى يصبح الأمر صعبًا وهذا من الحرمان وقلة التوفيق. فكم من باب من الخير حُرمناه بسبب الكسل وكم أضعنا من الأوقات وكم خسرنا من العلوم النافعة التي لم نعمر أوقاتنا بها وكم من صلاة فاتتنا وكم من خير فرطنا فيه فخسرنا ثوابه.

فالكسل هو سبيل المنافقين ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ﴾ وهو الطريق إلى النار وقد تعوذ الرسول ﷺ منه قال ﷺ: «**اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل**» وكما أنه مضعف للإيمان فهو كذلك مذهب للدنيا فالكسول لا ينجح في مشاريع دنياه. والأمة التي اعتاد أبناؤها هذه السجيّة: البطالة، هي أمة فاشلة منهوكة متكلة على غيرها تعيش على أفضال الآخرين ويتحكم فيها غيرها، وهي أمة لاشخصية لها تعيش على موائد أعدائها.

فمن الناس من شابهت حياته حياة الأنعام ـ إلى حد ما ـ للأكل والشرب والشهوات فقط. أما إذا صح إيمان المسلم فإنه يستشعر

المسؤولية في وقته وعطائه وإنتاجه وأثره وفكره، فهو يحاسب نفسه بأي شيء ملأ أيامه، والمسلم المتيقظ لمصالح دنياه وأخراه هو ذلك الرجل الجاد الحازم الطموح المهتم بمواعيده وعهوده والتزامته لنفسه وللآخرين، لأنه يدرك أن العمر قصير وقصير جدًّا إذا أخذ منه وقت الطفولة والصبا والشيخوخة ووقت الأكل والنوم، والوقت الماضي الذي ضيعناه بالأماني والغفلة فخسرناه دون استثمار ومنا من أضاع عمره في سخط الله ـ اللهم غفرًا ـ قال الله تعالى متوعدًا الكفار: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾[1] وقال عليه الصلاة والسلام: «**لن تزول قدما عبد حتى يسأل عن أربع وذكر منها. وعن عمره فيما أفناه؟**» الترمذي.

إن استثمار العمر وجني الفوائد منه لا يكون بالأماني وكثرة الكلام والاجتماعات والمؤانسة الودية وما ترتاح إليه النفس لا. وإنما هو بالعمل الجاد الدؤوب، وأحب الأعمال إلى الله أدومه وإن قل.

ثم إن العمر والقوة والنشاط والإقبال على الخيرات لاتعاد هذه الأشياء للإنسان مرتين بل هي فرصة واحدة وعمر واحد واختبار واحد، والنفس التي تبذل وتجود هي نفس واحدة للإنسان لا تتكرر ولا تعاد فإلام الأماني والتسويف، أما لنا في الموت واعظ؟!.

قال ابن القيم رحمه الله في الميمة:

فقدم فدتك النفس نفسك إنها هي الثمن المبذول حين تسلّمُ

---

(١) سورة فاطر، آية: ٣٧.

فماظفرت بالوصل نفس مهينة ولا فاز عبد بالبطالة ينعمُ
فبالله ما عذر امريء هو مؤمن بهذا ولا يسعى له ويقدم
ولكنما التوفيق بالله إنه يخص به من شاء فضلاً وينعم

٧-**الحذر من السيئة**: ولو كانت ذنبًا واحدًا فإنها تنقص الإيمان وتمرض القلب، وتفتح للشيطان المداخل، وتوهن العزيمة، وتجلب الغفلة وتُحيي في القلب داعي الهوى، وتحرم الرزق، وتذهب ببهاء الوجه، وهي قبل ذلك كله معصية للرحمن وطاعة للشيطان، وسبب لدخول المعاصي وتتابعها بعد الذنب الأول، لأن السيئات يأخذ بعضها برقاب بعض كما أن الحسنات تجر إلى مثيلاتها. والذنب يخون صاحبه أحوج ما يكون فهو علامة الخذلان وباب الشيطان إلى قلب العبد. قال تعالى: ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةٗ مِّنۡهُ وَفَضۡلٗاۗ﴾[1].

والذنب شؤم على العباد والبلاد فتأمل مصارع الأمم القوية المتمكنة كيف أودت بها ذنوبها، وانهارت قواها وصارت أثرًا بعد عين بسبب ذنوبها. وهذه سنة الله في خلقه. قال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِ حَاصِبٗا وَمِنۡهُم مَّنۡ أَخَذَتۡهُ ٱلصَّيۡحَةُ وَمِنۡهُم مَّنۡ خَسَفۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ وَمِنۡهُم مَّنۡ أَغۡرَقۡنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ۝٤٠﴾[2].

---

(١) سورة البقرة، آية: ٢٦٨.
(٢) سورة العنكبوت، آية: ٤٠.

وانظر إلى فعل الذنب الواحد في قلب العبد فكيف الحال إذا تراكمت الذنوب؟ وسهل اقترافها، وتعارف الناس عليها، ثم أصبحت الذنوب معروفًا واستحكمت الغفلة في القلوب، ونُسي وعيد الله وغضبه وأليم عقابه. قال الرسول ﷺ: «**إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكتت في قلبه نكتة سوداء، فإذا هو نزع واستغفر وتاب صُقل قلبه وإن عاد زيد فيها حتى تعلو قلبه وهو الران الذي ذكره الله تعالى**: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾»[(١)].

قال ابن القيم: (فإن الطاعة حصن الله الأعظم الذي من دخله كان من الآمنين من عقوبات الدنيا والآخرة ومن خرج عنه أحاطت به المخاوف من كل جانب فمن أطاع الله انقلبت المخاوف في حقه أمانًا ومن عصاه انقلبت مآمنه مخاوفًا فلا تجد العاصي إلا وقلبه كأنه بين جناحي طائر إن حركت الريح الباب قال: جاء الطلب، وإن سمع وقع قدم خاف أن يكون نذيرًا بالعطب، فمن خاف الله أمَّنه من كل شيء، ومن لم يخف الله أخافه من كل شيء)[(٢)].

٨- **عبادة السر**: بين العبد وربه، فإذا أخفاها عن الناس توجه إلى ربه بها محضرًا قلبه فإنها تزيد الإيمان، وتحيي القلب، وتحصل بها اللذة والحلاوة، وإذا دوام عليها وصبّر نفسه بحيث يستوطنها لتكون

---

(١) سورة المطففين، آية: ١٤. أحمد والترمذي ج٢ ص٧٨ (صحيح الجامع).
(٢) الجواب الكافي ص١١٥، وقلب في صفحات هذا الكتاب تجد العجب العجاب من آثار الذنوب والمعاصي.

لها وطنًا يجاهد نفسه في البداية عليها لأنه سيجد من النفس استثقالها، لكن بالعزيمة والصبر واستحضار الثواب والسعي الجاد الذي لا يتنازل عنها سيجد راحة قلبه والسكينة والطمأنينة والعيش الرضي بتلك العبادة قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾(١)، وقال سبحانه: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ﴾(٢) وليست العبادة خاصة بالصلاة بل المقصود كل قربة يتقرب بها العبد إلى ربه.

وكان السلف رحمهم الله يستحبون أن يكون للواحد خبيئة بينه وبين الله لا يعلم بها أحد. وقالوا: (من علامة المخلص أن يحرص على ألا يطلع الخلق على مثاقيل الذر من عمله) ويستثنى من ذلك ماوجب إظهاره وفعله مع الناس كالحج وصلاة الجماعة وما يظهره المخلص ليكون قدوة لغيره وليحيي به السنة قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ﴾(٣).

وأخبار المخلصين المستسرين لأعمالهم كثيرة أولئك الأخيار الذين اكتفوا باطلاع الله عليهم دون الناس فستروا أعمالهم عن رؤية الخلق.

قال ابن الجوزي رحمه الله: (ما أقل من يعمل لله تعالى خالصًا لأن أكثر الناس يحبون ظهور عباداتهم). ووصى الإمام أحمد ابنه

---

(١) سورة العنكبوت، آية: ٦٩.
(٢) سورة مريم، آية: ٦٥.
(٣) سورة البقرة، آية: ٢٧٤.

قائلاً: (يا بني انو الخير فإنك لا تزال بخير ما نويت الخير) وقال يحيى بن كثير: (تعلموا النية فإنها أبلغ من العمل) وسُئل حمدون القصار، ما بال كلام السلف أنفع من كلامنا؟ قال: (لأنهم تكلموا لعز الإسلام ونجاة النفوس ورضا الرحمن، ونحن نتكلم لعز النفوس وطلب الدنيا ورضا الخلق). وقال الحسن البصري: (إن كان الرجل ليجلس المجلس فتجيئه عبرته فيردها فإذا خشي أن تسبقه قام».

وكان ناس من أهل المدينة لا يدرون من أين كان معاشهم فلما مات علي بن الحسين (زين العابدين) فقدوا ذلك الذي كانوا يؤتون بالليل. وقد وجدوا بظهره أثر (الجرب) مما كان ينقل بالليل إلى منازل الأرامل.

وكان عبدالله بن المبارك يضع اللثام على وجهه عند قتاله في سبيل الله، وقال عنه الإمام أحمد: ما رفع الله ابن المبارك إلا بخبيئة كانت له.

وقال محمد بن واسع: (إن كان الرجل ليبكي عشرين سنة وامرأته معه لا تعلم به). وقال الشافعي: (وددت أن الخلق يتعلمون مني ولا ينسب إليَّ منه شيء). وقال أيوب السختياني: (والله ما صدق عبد إلا سره أن لا يُشعر بمكانه). والله المستعان فكيف اليوم بمن لا يسر إلا إذا علم الناس بعلمه وعمله وصدقته وأثني عليه!).

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (فمن خلصت نيته في الحق ولو على نفسه كفاه الله ما بينه وبين الناس، ومن تزين بما ليس فيه

شانه الله)[١].

وهكذا فإن المخلصين الذين أخفوا لله أعمالهم زينهم الله بها وظهر أثر تلك الأعمال على وجوههم الصادقة، وأطلع اللهُ الناس على أعمالهم فعرفوهم وأصلح الله حالهم قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ﴾[٢]، فكفاهم الله مؤنة الناس لأن الله مع أوليائه يحفظهم وينصرهم ويزكي قلوبهم، وإذا انقلبوا إليه رضي عنهم ورحمهم وقربهم في دار كرامته.

قال ابن القيم رحمه الله: (لا يجتمع الإخلاص في القلب ومحبة المدح والطمع فيما عند الناس إلا كما يجتمع الماء والنار والضب والحوت)[٣].

٩- تقوية جانب الخوف من الله: فإن الخوف من الله تعالى يحيي القلوب ويدعو إلى الندب على النفس وقمعها ويزهد العبد في عمله ويكسر صولة النفس في الإعجاب. قال الرسول ﷺ: «**إني لأعلمكم بالله وأشدكم له خشية**». وقال ﷺ: «**لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيرًا، ولما تلذذتم بالنساء على الفرش ولخرجتم إلى الصُعدات تجأرون إلى الله تعالى**» أحمد والترمذي وقال: حسن غريب.

---

(١) هذه الآثار من كتاب معالم في السلوك وتزكية النفوس لعبدالعزيز العبد اللطيف.
(٢) سورة المجادلة، آية: ٢٢.
(٣) الفوائد ص١٤٩.

قال أبو حفص: (الخوف سوط الله يقوّم به الشاردين عن بابه وكل أحد إذا خفته هربت منه إلا الله إذا خفته هربت إليه).

وقال إبراهيم بن سفيان: (إذا سكن خوف القلب أحرق مواضع الشهوات منه وطرد الدنيا عنه، والخوف ليس مقصود لذاته بل مقصود لغيره، وأهل الجنة يزول عنهم الخوف لقوله تعالى: ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾)[1].

والخوف المحمود هو ما حال بين الإنسان وبين محارم الله. قال شيخ الإسلام: (الخوف المحمود ما حجزك عن محارم الله)، والخوف من الله علامة لصحة الإيمان، وترحله من القلب علامة لضعف الإيمان. والقلب في سيره إلى الله بمنزلة الطائر فالمحبة رأسه والخوف والرجاء جناحاه فمتى سلم الرأس والجناحان فالطائر جيد الطيران)[2].

والواجب المساواة بين الخوف والرجاء بحيث لا يتغلب أحدهما على الآخر. فإن غلب الخوف قنط من رحمة الله، وإن غلب الرجاء أمن من مكر الله، وقيل في حال الصحة يغلّب جانب الخوف، وفي حال المرض يُغلّب جانب الرجاء، ويرجح الشيخ محمد بن عثيمين أنه: إذا نظر إلى عمله غلّب جانب الخوف، وإذا نظر إلى رحمة الله غلب جانب الرجاء. قال طاووس بن كيسان: (قد طير ذكر جهنم نوم العابدين)[3].

---

(١) سورة يونس، آية: ٦٢.
(٢) تهذيب مدارج السالكين «منزلة الخوف».
(٣) صفة الصفوة.

الله المستعان وهل ذكر جهنم يفزعنا ويطرد النوم عنا. إن الناظر في حال الأغلب منا يرى أننا نعيش عيشة الآمن المطمئن المرتاح الذي اكتفى بما يزينه عند الناس، واكتفى بتقييم الناس له على أنه من المستقيمين ولم ينظر في حال قلبه ومحبة الله وخوفه ورجائه.

١٠- غض البصر: من أهم الأسباب التي تحفظ القلب بإذن الله عن التعلق بصور النساء والمردان، فيسلم من أمراض الشهوات ويظل صحيح الإيمان يتذوق حلاوة الطاعات لأن قلبه متعلق بربه. وهذا يوسف عليه السلام لما كف نفسه عن السوء وجوارحه عن المعصية حماه الله وصرف عنه السوء والفحشاء، قال تعالى: ﴿لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوٓءَ وَالْفَحْشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾[1].

وأما من سمح لبصره وأطاع نفسه بإرخاء العنان لها هنا وهناك مرة إثر مرة فإن النفس تريد شهوة النظر فالعين تتلذذ، والقلب يولع بالمناظر الحسنة. ولكنه الشر المستطير والآفة الخطيرة حيث يُسبى القلب ويتعلق ويتألم ويقع الحب والغرام والوله والعشق والهيام، ثم لا تسل عن حال صاحبه مع العبادة والقرآن والخشوع وبهاء الوجه وصفاء القلب.

وكنت متى أرسلت طرفك رائدًا لقلبك يومًا أتعبتك المناظر
رأيت الذي لا كله أنت قادر عليه ولا عن بعضه أنت صابر

وهذه الآفة ليست خاصة بالفسقة والعصاة بل قد تكون داء من

---

(١) سورة يوسف، آية: ٢٤.

يتعامل في أسواق النساء، أو من يتعامل مع المردان في التدريس، فالحذر الحذر.. وقد لا يشعر صاحب هذه الآفة ببلائه فيستمر عليها ويشبع نظره بما ترتاح إليه نفسه، ويبرر بأن هذا طبيعة عمله، أو أن النظر المجرد لا يؤثر فيه، وأنه قد تعوّد عليه.

والجواب عن هذا هو قول الرسول ﷺ لعلي رضي الله عنه: «**يا علي لا تتبع النظرة النظرة فإن لك الأولى وليس لك الآخرة**»[1]. ويقال لمن كانت هذه حاله: إن قلبك يفسد، وإيمانك ينقص، وعبادتك قد فقدت روحها وأنت لا تشعر، ولابد أن تحجب تلك السيئة حسنات وخيرات، وأول آثارها ومصائبها أنك لم تشعر بالذنب، وهذه مصيبة أخرى غير ذنب النظر المحرم.

قال الشيخ محمد بن عثيمين حفظه الله: الصواب أن مس الأمرد كمس الأنثى سواء، حتى قال بعض العلماء: إن النظر إلى الأمرد حرام كالنظر إلى المرأة مطلقًا، فيجب عليه غض البصر. وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: لاتجوز الخلوة بالأمرد ولو بقصد التعليم لأن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم[2].

وقال الشيخ عبدالرحمن بن قاسم: (والتلذذ بلمسه حرام بإجماع المسلمين وكذا النظر إليه بشهوة)[3].

---

(١) رواه الترمذي من حديث شريك وقال غريب لا نعرفه إلا من حديث (تفسير ابن كثير ج٥ ص٨٦.

(٢) الشرح الممتع ج١ ص٢٤٣.

(٣) حاشية الروض المربع ج١ باب نواقض الوضوء.

١١- الدعاء: سلاح المؤمن المكين وحصنه الحصين وملاذ الحيارى والمكروبين، فإليه يفزعون وبه يحتمون، وهو عبادة عظيمة من أعظم العبادات لأن العبد يتوجه إلى ربه به قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[١] فالداعي بصدق ينقطع إلى ربه ويعرض عن المخلوقين، ولا يلتفت بقلبه إليهم لأنهم لا يملكون له ضرًّا ولا نفعًا ولا موتًا ولا حياة ولا نشوراً. قال رسول الله ﷺ: «**الدعاء هو العبادة**»[٢].

وقال عمر رضي الله عنه: «إني لا أحمل هم الإجابة، ولكن أحمل هم الدعاء فإن ألهمت الدعاء فإن الإجابة معه»، فإذا تجرد العبد للدعاء صادقًا عائذًا بربه ومستجيرًا به فإن هذا علامة صحة الإيمان وحياة القلب، والعبد لا يخيب ولا يفلس بعد دعائه إذا حقق شروط الدعاء وانتفت الموانع فالإجابة مضمونة عند الله، قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾[٣].

قال ابن القيم رحمه الله: (وإذا اجتمع مع الدعاء حضور القلب وجمعيته على المطلوب وصادف وقتًا من أوقات الإجابة الستة وهي: الثلث الأخير من الليل، وعند الأذان، وبين الأذان والإقامة، وأدبار

---

(١) سورة غافر، آية: ٦٠.
(٢) رواه أحمد والترمذي. صحيح.
(٣) سورة البقرة، آية: ١٨٦.

الصلوات المكتوبات، وعند صعود الإمام يوم الجمعة على المنبر حتى تقضى الصلاة، وآخر ساعة بعد العصر من ذلك اليوم. وصادف خشوعًا في القلب وانكسارًا بين يدي الرب، وذلاً له وتضرعًا ورقة واستقبل الداعي القبلة، وكان على طهارة ورفع يديه إلى الله، وبدأ بحمد الله والثناء عليه ثم ثنّى بالصلاة على محمد ﷺ ثم قدم بين يدي حاجته التوبة والاستغفار ثم دخل على الله وألح عليه بالمسألة وتملقه ودعاه رغبة ورهبة وتوسل إليه بأسمائه وصفاته وتوحيده وقدم بين يدي دعائه صدقة فإن هذا الدعاء لا يكاد يُرد أبدًا. ولا سيما إن صادف الأدعية التي أخبر النبي ﷺ أنها مطنة الإجابة وأنها متضمنة للاسم الأعظم)[١].

وأخيرًا فإن كل طاعة تزيد الإيمان إذا صاحبها الإخلاص والصواب.

ومن وسائل التربية الإيمانية الجليس الصالح، وزيارة المقابر وتسجيل الفائدة، وقراءة الكتب النافعة التي تتكلم عن أعمال القلوب وأعلاها وأشرفها القرآن الكريم، والسنة المحمدية، وكتب أئمة السلف ككتاب مدارج السالكين وإغاثة اللهفان والفوائد لابن القيم، والتحفة العراقية لشيخ الإسلام ابن تيمية ومختصر منهاج القاصدين لابن قدامة المقدسي وكتاب الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي لابن القيم وغيرها.

---

(١) الجواب الكافي ص٢٤.

وكذلك النظر المتدبر في سير الصحابة والتابعين والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، وماهم عليه من الصدق والإخلاص في بذلهم وتضحيتهم في علمهم ودعوتهم وجهادهم وحسن تعبدهم لله.

الخاتمة

الحمد لله الهادي إلى سواء السبيل الموفق من شاء إلى صراطه المستقيم.

وبعد هذه الجولة في قطوف الإيمان وثمراته العظيمة فإن العيش في تلك الرحاب يحيي القلب، ويسمو بالروح لتعيش عيشة أخرى غير عيشة بقية الناس الذين يتعاملون مع الماديات والأسباب فقط من متاع هذه الدنيا الرخيص الفاني مما تشتهيه النفس وتسعى إليه، ذلك أن سعادة أهل الإيمان بإيمانهم وإقبالهم على ربهم والتلذذ بذكره وحلاوة مناجاته والعمل فيما يرضيه والجهاد في سبيله، وقد استدبروا عَرَض هذه الدنيا الزائل وراءهم ظهريًا فلم يرفعوا بها رأسًا ولم يلتفتوا إليها، لأنهم قد أدركوا جيدًا حقيقة هذه الدنيا دار البلايا والرزايا والآفات والفتن والزوال والهوان، فاستصغروا شأنها واحتقروا سعتها وأموالها وأملاكها ولم يقلقهم ما فاتهم منها لأنهم جعلوا في رجائهم لربهم عوضًا عن كل فائت، ولأن الآخرة عظمت في نفوسهم، واستولت على اهتماماتهم فجعلوا السعي والهم لها، فركضوا إليها مشمرين جادين وباذلين كل ما يملكون وما يستطيعون، يريدون الوصول إلى الغنيمة والرضوان في دار القرار، مغتنمين ساعات العمر القصار، لتحصيل الكنوز التي لا ينتهي نعيمها أبد الآباد.

ومن هنا اختلفت الحياتان بين من يقبل على الدنيا يريدها

ويرجوها وبين من يستدبرها يريد وجه الله والآخرة. فتغيرت الوسائل والاهتمامات تبعًا لتغير الغايات والأهداف.

إن من صح إيمانه يرضى ويسعد بطاعة الله وبرؤية الطائعين الساعين في مرضاة ربهم، ويقلق ويحزن إذا رأى شيوع الفساد وإقبال الفسقة على منكراتهم فيسعى جاهدًا لإنكار الشرور والموبقات المهلكات التي لا تنتشر إلا بسبب غفلة أهل الحق وتهاونهم.

فيا صاحب الإيمان إذا لم تجد في قلبك الغيرة والحُرقة للحرمات التي تنتهك، والمحرمات التي تستباح، وأهل المعاصي وراء منكراتهم يلهثون، فإذا لم تقلق لذلك فراجع إيمانك، فإنه الخلل الكامن والتبلد نحو استشعار المسؤولية والتبعة وعظيم الأمانة، قال رسول الله ﷺ: «**إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه، أوشك الله أن يعمهم بعقاب منه**» أبوداود والترمذي والنسائي بأسانيد صحيحة.

إننا في دار الجهاد والمصاولة مع النفس الأمارة بالسوء المريدة للشهوات المؤثرة للراحة والدعة، إن من يريد أن يحفظ قيمته بين الناس زاعمًا أنه لايريد أن يواجه أحدًا بشيء يكرهه، ولا يتعرض لمنكر بالإنكار ويتحاشى أن يُرمى بالسب والاستهزاء، فهو يسعى إلى أن يبقى مكرمًا موقرًا يفسح له في المجالس، إن من عنده هذا الفهم والتصور فهو بحاجة إلى إعادة النظر في إيمانه لأن الإيمان الصحيح يُلح على صاحبه بإيثار مرضاة الله على كل أحد فلا يتزين عند الناس ويداهنهم ويداريهم على حساب دينه بل لابد للصادق في إيمانه أن

يناله من بعض الناس مسبة أو شماتة أو تهمة وإن كان هو لا يطلب ذلك ابتداءً ولكن هذا نتيجة حتمية لمن واجه الناس بالحق، لأن أكثر الناس لا يرتضي الحق إذا عارض هوى في نفسه.

إن ظاهرة ضعف الإيمان داء خطير على كافة المستويات فتظهر آثاره حتى على طلبة العلم والدعاة في ضعف التميز والتعبد وبروز الحسد والدعة والهوان والالتفات عن هموم الدعوة وجراح المسلمين إلى الانشغال بمطامع الحياة والشهوات والكماليات وتزيين ذلك بحيث يغلب ويصير هو الشغل الشاغل.

فما أشد الضرورة اليوم بالأمة ـ بسبب الغفلة والجهل ـ إلى التعليم والتوجيه للعامة والخاصة ، فلقد فتكت في أكثر الناس الشهوات، وانتهاك المحرمات وزين لهم الشيطان أعمالهم فأنساهم آخرتهم ومآلهم وأشغلهم بدنياهم عن دينهم، وبحب ما تشتهيه الأنفس عن حب الله ورسوله، فلجوا في معاصيهم وعكفوا على ملاهيهم وضُيعت حقيقة الصلاة والمحافظة عليها وصار من السهل الإقدام على الكبائر والتفريط في الواجبات بطريقة متعارف عليها دون حرج أو تردد بسبب ضعف خوف الله وقلة الناصح..

ولن يُصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها بالرجوع إلى الله وخوفه ورجائه وذلك بتجديد الإيمان وزرعه وسقيه، ومعاهدته حتى ينبت ويورق ويثمر فتظهر آثاره على القلوب والوجوه وسائر الجوارح، وتظهر حقيقة العبودية ويصفو المشرب من الكتاب والسنة فلا تكدره

لوثات الشركيات والبدع والهوى والسيئات.

فبالقرآن الهدى والشفاء والنور والبيان والدواء لكل آفة وجرح داخلي في القلب، أو خارجي مع الناس، فهو غذاء الأرواح وشفاء الصدور وعمارة الدنيا والآخرة، وفي الحديث عن رسول الله ﷺ: «**أسألك أن تجعل القرآن ربيع قلبي ونور صدري**» فهو الحياة والدليل الهادي إلى كل خير.

اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة. أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون. اهدنا لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم.

هذا وأسأل الله العلي العظيم، الحي القيوم، ذا الجلال والإكرام، بديع السموات والأرض، الرحيم الودود اللطيف الشكور أن يعمنا برحمته ووالدينا وذرياتنا وجميع المسلمين، وأن يصلح أحوال المسلمين، وأن يحيي الإيمان في قلوبنا وينور بصائرنا، وأن يجعل أعمالنا وأقوالنا خالصة لوجهه الكريم، وأن يتوفانا على الإيمان وهو راض عنا، وأن يهب لنا علمًا نافعًا وعملاً صالحًا وتعليمًا خالصًا وتوبة نصوحًا وثوابًا جاريًا في الحياة وبعد الممات، وأن يحسن لنا الخاتمة.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله ومن سار على نهجه إلى يوم الدين.

الفهرس

من إصداراتنا

* المذمة في استعمال أهل الذمة

د. عبدالله الطريقي

* نواقض الإيمان الاعتقادية

د. محمد بن عبدالله الوهيبي

* التوجيه غير المباشر

د. صالح بن عبدالله بن حميد

* التقليد والتبعية

د. ناصر بن عبدالكريم العقل

* حجية الآحاد ورد شبهات المخالفين

د. محمد الوهيبي

* فقه الخلاف بين المسلمين

د. ياسر برهامي

* تزكية النفس لابن تيمية

تحقيق د. محمد سعيد القحطاني

* الغضب

د. عبدالعزيز النغيمشي

* العجلة

د. عبدالعزيز النغيمشي

* العصرانية في حياتنا الاجتماعية

د. عبدالرحمن الزنيدي

* فقه الاحتساب على غير المسلمين

د. عبدالله الطريقي

* التوجيه التربوي

د. عبدالحليم بن إبراهيم العبدا للطيف

* حقيقة الفكر الإسلامي

د. عبدالرحمن الزنيدي

* أخطاء الطلاب الشائعة في الكتابة والقراءة

د. محمود عمار

* الصلة بين العقيدة والحاكمية في فكر سيد قطب

عبدالعزيز الوهيبي

* نحو فهم أعمق للواقع الإسلامي

د. عبدالكريم بكار

* فوائد من شرح منار السبيل

عبدالعزيز السدحان

* من قضايا الصحوة

د. ناصر العقل

* دراسات إعلامية في فكر ابن تيمية

د. سيد ساداتي الشنقيطي

* فتاوى في الطهارة والصلاة

فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين

* قضايا ومباحث في السيرة

د. سليمان بن حمد العودة

* مفهوم الطاعة والعصيان

د. عبدالله الطريقي

* المثاقفة والأسلمة

د. حسن بن فهد الهويمل

* حاجة الصحوة إلى الفقه في الدين

د. ناصر بن عبدالكريم العقل